المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

فيليب بروطون

الحجاج فى التواصل

ترجمة : محمد مشبال

عبد الواحد التهامى العلمى



2338

ليس المقصود بالبلاغة في هذا الكتاب نظرية الأسلوب؛ وهي البلاغة التي سادت لقرون طوال في الثقافة الغربية، ولا تزال جاثمة على قاعات الدرس في معظم مدارسنا وجامعاتنا العربية، بل المقصود بها النظرية التي احتفت بالتواصل الحجاجي في جميع الخطابات التي تنسج حياتنا؛ كالخطاب اللغوي العادى والخطاب الفلسفي والخطاب الأدبي والخطاب الصحافي والخطاب السياسي والخطاب الديني والخطاب الإشهاري.

إن التوجه العام في هذا الكتاب هو توجه إجرائي يجعل منه كتابا يخاطب الباحث المتخصص في البلاغة ونظرية الحجاج، والطالب المهتم بتحليل الخطابات، كما يخاطب القارئ العام الذي يسعى إلى تثقيف نفسه في مجال تقنيات التواصل. فقد كان المؤلف حريصا على تحديد الحجج تحديدا بسيطا وواضحا لا ينزع نزعة تفسيرية فلسفية، لأن ما كان يهمه هو أجرأة هذه التقنيات الحجاجية، وجعلها عُدَّةً يسهل تشغيلها.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح

الحجاج في التواصل

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: كاميليا صبحي

- العدد: 2338
- الحجاج في التواصل
- فيليب بروطون
- محمد مشبال، وعبد الواحد التهامي العلمي
- اللغة: الفرنسية
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:

L'argumentation dans la communication
Par: Philippe Breton

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

الحجاج في التواصل

تأليف: فيليب بروطون

ترجمة: محمد مشبال

عبد الواحد التهامي العلمي

2013

بروطون، فيليب.
الحجاج فى التواصل/ فيليب بروطون: ترجمة:
محمد مشبال، عبد الواحد التهامى العلمى. ـ
القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ٢٠١٣.
١٥٢ ص: ٢٤ سم. ـ (المركز القومى للترجمة)
تدمك ٥ ٢٧٥ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ الإقناع.
أ ـ مشبال، محمد. (مترجم)
ب ـ العلمى، عبد الواحد التهامى. (مترجم مشارك)
ج ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٧٦٢٩/ ٢٠١٣
I. S. B. N 978 - 977 - 448 -275 - 5
ديوى ١٥٣،٨٥٢

الفهرس

تقديم المترجمين

قال ميشيل ماير الفيلسوف البلاغي البلجيكي المعروف مرة: «كلنا بلاغيون»[1]. وكان يعني بقوله هذا أن البلاغة لم تعد محصورة في الأنواع الخطابية القديمة التي حددها أرسطو في الخطاب السياسي والخطاب القضائي والخطاب الاحتفالي، بل إنها ماثلة في كل الخطابات التي يتواصل بها الناس في أمور دنياهم العملية والثقافية؛ فالرجل عندما يحاول إغراء الفتاة الجميلة، والمراهقة عندما تحاول إقناع أبويها للسماح لها بالخروج في المساء، وصاحب المطعم عندما يغري زبناءه ويقنعهم بما يعرضه عليهم من وجبات، والأستاذ عندما يسعى إلى إقناع تلاميذه، والمثقف عندما يروم إقناعنا بصحة رؤاه... كل هؤلاء يستخدمون في تواصلهم الحجاج ويمارسون فن الإقناع؛ أي باختصار يتحولون إلى بلاغيين.

تعني البلاغة إذن التحكم في إمكانات اللغة لأجل التواصل مع الآخرين وإقناعهم بوجهة نظرك أو رأيك أو موقفك أو سلوكك أو أطروحتك. وفي جميع الأحوال تتحرك

(1) Michel Meyer, Nous sommes tous des rhétoriciens, Revue Sciences Humaines, Numéro 209, Novembre 2009.p.47.

البلاغة في دائرة الرأي؛ إننا لا نحاجج الآخرين في الحقائق العلمية الصحيحة أو القابلة للبرهنة الحاسمة، لأن مدار الحجاج على الرأي المحتمل الذي لا يمتلك دقة الحقائق العلمية، بيد أنه من جهة أخرى لا يعرى عن القوة والفعالية في الحياة الاجتماعية اليومية. قد يعوزنا الاستدلال بالمعنى العلمي الصارم على صحة رأي ما؛ فنحن لا نستطيع أن نبرهن علميا على صحة القول بالمساواة بين الرجل والمرأة، أو على صحة القول بحرية الإنسان في إبداء الرأي، أو على صحة القول بضرورة تطبيق الديموقراطية في البلدان المتخلفة، أو على صحة القول بضرورة احترام الآباء، وغيرها من الأقوال والآراء التي لا يمكن الغمز في قوتها أو سريانها في المجتمعات، على الرغم من أنها لا تخضع بالضرورة للاختبار العلمي. ولكن هل يستطيع العلم أن يحسم مشكلات الإنسان العملية والعقدية وأن يدلي بدلوه في شئون حياة الناس الاجتماعية والإيديولوجية؟ هل يملك القبض على حقيقة الإنسان وجوهره؟[١]

لقد أدرك الإنسان اليوم أن العلم لا يمكنه أن يحل مشكلاته العملية اليومية التي يواجهها في الحياة، كما ثبت لديه أن توصيل آرائه-التي لا يستطيع أن يحيا من دونها- يحتاج إلى وسيلة أكثر إنسانية تنأى به عن صرامة العلم وتجنبه أساليب الإكراه والتطويع وكل ما يشير إلى عنف الخطاب الذي لا يبتعد كثيرا عن العنف الجسدي. من هنا تنبثق أهمية البلاغة بوصفها الأداة الأكثر إنسانية في تواصل الأفراد داخل المجتمع وتواصل الشعوب داخل هذا العالم الذي يحتويهم.

لقد شكلت البلاغة والحجاج قطيعة مع التصور الديكارتي[٢] للعقل الذي ساد في

(١) في هذا السياق ينبغي فهم دعوة منظري البلاغة الجديدة أو نظرية الحجاج إلى استكمال نظرية البرهان في المنطق الصوري بنظرية الحجاج التي تتولى دراسة الاستدلالات الجدلية التي تسعى إلى قبول أو رفض الأطروحة المتنازع حولها؛ فإذا كان البرهان ينطلق من الحقيقة الواضحة، فإن الحجاج ينطلق من الرأي المحتمل الذي يستمد قوته من قبول الناس له. وعلى هذا النحو فإن الحجاج ضروري بالنسبة إلى المجالات العملية كالأخلاق والسياسة؛ حيث لا يمكن تجنب الاختيار والتناظر حول الرأي الأفضل والأقوى.

(2) Chaim Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca, Traité de l'argumentation, editions de l'université de Bruxelles,2000. pp.113-.

الفلسفة الغربية لعقود من الزمن، وهو التصور الذي كان يرى أن العقلانية مفهوم مطابق للمناهج العلمية، وأن الأدلة المقبولة هي الأدلة التي تحظى بتقدير العلوم الطبيعية، أما الحجج المبنية على ما هو محتمل فإنها تجافي الحقيقة ولا ينبغي الاعتداد بها. إن البلاغة ونظرية الحجاج تقران بأن العقل بالمفهوم الديكارتي لا يتمتع بالكفاية في مجالات غير خاضعة للحساب مثل المجال الإنساني الذي يستمد فيه الحجاج قوته من تأثيره في المتلقي وليس من صرامته أو مطابقة محتواه للوقائع.

واضح أن المقصود بالبلاغة هنا ليس مفهومها المدرسي[1] الذي استقر في الثقافة العربية الحديثة، وليس مفهومها الذي ساد أيضا في الثقافة الغربية منذ القرن السادس عشر[2] واستمر حتى أواخر القرن التاسع عشر؛ أعني مفهومها الذي اقترن بالكفاية الأسلوبية والقدرة على تنميق الكلام واستخدام أفانينه الساحرة، بل المقصود بالبلاغة نظرية في الخطابات التواصلية؛ سواء أكانت كلاما عاديا بين أفراد المجتمع أم خطابات سياسية ودينية وقضائية وحقوقية واجتماعية وأدبية[3]. إنها البلاغة التي أسسها أرسطو

---

(١) سبق لجيرار جينيت أن نعت هذه البلاغة المدرسية بـ «البلاغة الضيقة» وكان يقصد بهذا الوصف، أن البلاغة التي كانت مع أرسطو وغيره من البلاغيين اليونان والرومان تعنى بالخطاب في مستوياته كافة أو أجزائه (الحجج والترتيب والأسلوب والذاكرة والفعل) أصبحت في العصر الحديث بلاغة تعنى بالأسلوب أو فن العبارة فقط، بل بجزء من الأسلوب هو الاستعارة. وهو ما يمكن تفسيره باستيلاء الخطاب الأدبي على النظرية البلاغية التي أصبحت نظرية في الأدب وليس نظرية الخطاب الإقناعي.

(2) Chaim Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca,op. cit, P. 20.

يذكر بيرلمان وغيره من دارسي البلاغة أن موتها بدأ في القرن السادس عشر عندما حصر بيير دي لارامي Pierre de la Ramée في كتابه «الجدل»(١٥٥٥) البلاغة في دراسة فن العبارة؛ أي المحسنات الأسلوبية، منتزعا منها مكونين جوهريين من مكوناتها وهما الإيجاد والترتيب. وبذلك فصل البلاغة عن الجدل، ليحدد وظيفتها في دراسة وسائل التعبير الجميلة بدل أن تكون دراسة للحجاج. هذا الفصل الحاسم سيتلقفه صديق لهذا الفيلسوف يدعى أومير طالون Omer Talon الذي قام في ألمانيا بنشر أول بلاغة بمعناها الضيق المحصور في الصور (١٥٧٢).

(٣) ليس المقصود هنا بالخطابات الأدبية الخطاب الاحتفالي الذي أشار إليه أرسطو بوصفه أحد أنواع الخطابة في عصره فقط، ولكن المقصود أيضا ما يتخلل الأعمال الأدبية من بعد بلاغي حجاجي؛ فقد استمد أرسطو معظم شواهده البلاغية من نصوص مسرحية، كما أن بيرلمان وغيره من البلاغيين المعاصرين يعتمدون الأعمال الروائية والمسرحية والسينمائية مصدرا لعرض مادتهم البلاغية، على نحو ما فعل فيليب بروطون في هذا الكتاب.

في كتابه «فن الخطابة» واستمرت بعده مع شيشرون وكونتيليان وغيرهما، إلى أن حدث ما حدث من تعرضها للاختزال ثم إلى الاختفاء أو الأفول بعد ذلك لعدة أسباب يلخصها أوليفيي ريبول Olivier Reboul [1] في عاملين؛ أحدهما، هيمنة النزعة الوضعية التي رفضت البلاغة باسم الحقيقة العلمية، وثانيهما، ظهور المذهب الرومانسي الذي رفضها باسم الصدق.

ولم تعرف البلاغة انبعاثا إلا في أواخر الأربعينيات ونهاية الخمسينيات من القرن العشرين، وتحديدا مع ظهور كتاب كورتيوس E.R.Curtius «الأدب الأوروبي والعصر الوسيط اللاتيني» (١٩٤٨) الذي ترجم إلى الفرنسية سنة (١٩٥٦)، وهو الكتاب الذي استخدم فيه صاحبه مفهوم «المواضع المشتركة» وهو أحد أبرز مفهومات الحجاج. وفي سنة (١٩٥٨) ظهر كتابان سيكون لهما تأثير واسع على كل الدراسات البلاغية والحجاجية التي سيتوالى ظهورها في وقت لاحق وخاصة في التسعينيات وحتى الآن؛ يتعلق الأمر بكتاب «مصنف الحجاج: البلاغة الجديدة» لشاييم بيرلمان C.Perelman ولوسي أولبرخت تيتيكا L.Olbrechts-Tyteca وكتاب «استخدامات الحجاج» لتولمين S.E.Toulmin. دون أن نغفل الدور الذي اضطلعت به التداوليات La pragmatique[2] في تغذية الدراسات البلاغية الحجاجية؛ فقد أدى نمو هذا الحقل الذي قام على دراسة اللغة في السياق وربط اللغة بمستعمليها، إلى إحداث مفهومات استثمرتها الدراسات الحجاجية من قبيل مفهوم نظرية أفعال اللغة عند أوستين J.L.Austin (١٩٦٢) وسورل J.R.Searle (١٩٦٩)[3].

ومع ذلك لم تسمح فترة الستينيات والسبعينيات-على الأقل في فرنسا[4]- بازدهار

(1) Olivier Reboul, Introduction à la rhétorique. PUF, 1991.pp. 90- 91.

(2) Christian Plaintin, L'argumentation, éditions du Seuil, 1996. P.12.

(٣) ترجم كتاباهما إلى الفرنسية في بداية السبعينيات؛ ترجم كتاب أوستين «عندما نقول فإننا نفعل» سنة ١٩٧٠، وترجم كتاب سورل «أفعال اللغة» سنة (١٩٧٢)

(٤) يذكر مؤرخو البلاغة الغربية أن العالم الأنجلوسكسوني لم يشهد قطيعة تامة مع البلاغة القديمة بخلاف ما حدث في فرنسا.

البلاغة ونظرية الحجاج، لأنها كانت فترة انتشار البنيوية التي لم تكن لتفسح المجال لظهور مفهومات البلاغة والحجاج من قبيل «مقصدية المؤلف» و«المتلقي» و«الموقف التواصلي»[١] وغيرها من المفهومات التي تتعارض مع المبادئ التي نادت بها. وحتى عندما ظهر كتاب «البلاغة العامة»[٢] لجماعة مو(١٩٧٠) فإنه لم يكشف عن أية علاقة بالبلاغة كما عهدناها مع أرسطو؛ أي من حيث هي نظرية في الحجاج، بل كان مجرد إعادة صياغة على أسس لسانية بنيوية حديثة للمصنفات البلاغية الكلاسيكية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر التي انشغلت بالوجوه الأسلوبية، على نحو ما صنع دومارسي Dumarsais في كتابه عن «المجازات» (١٧٣٠) وفونطانيي Fontanier في كتابين[٣]؛ أحدهما عن الصور المجازية (١٨٢١) والثاني عن الصور غير المجازية (١٨٢٧).

ليس المقصود إذن بالبلاغة في هذا الكتاب نظرية الصور والوجوه الأسلوبية التي نعتها جيرار جينيت بـ «البلاغة الضيقة»[٤]؛ وهي البلاغة التي سادت لقرون طوال

---

(١) على الرغم من هذه النزعة البنيوية العامة التي سادت في فترة الستينيات في فرنسا، فإنه مع مطلع السبعينيات ظهرت مؤلفات أعادت الاعتبار للبلاغة القديمة (أي البلاغة الحجاجية) على الرغم من أنها لم تستطع أن تحدث تأثيرا وتخلق اتجاها بلاغيا حجاجيا في فترة ظهورها. أشير هنا على سبيل المثال إلى هذين الكتابين:

Roland Barthes, L'ancienne rhétorique : Aide-mémoire, in Recherches rhétoriques, Communications, 16. éd. Seuil 1994.

الكتاب في الأصل دروس ألقاها بارت في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا بباريز(١٩٦٤-١٩٦٧) عن البلاغة القديمة وقد أعاد صياغتها ونشرها في مجلة «اتصالات» ١٩٧٠.

Kibédi Varga, Rhétorique Et Littérature, DIDIER, Paris 1970.

يعد كيبيدي فاركا أحد البلاغيين المعاصرين الذين اهتموا منذ فترة مبكرة بتطبيق البلاغة الحجاجية في تحليل نصوص أدبية وفنية. ويعد كتابه «البلاغة والأدب» محاولة مبكرة في العالم الناطق بالفرنسية لبعث البلاغة القديمة والعمل بمبادئها في تحليل نصوص الأدب الكلاسيكي الفرنسي.

(2) Groupe Mu, Rhétorique générale.éd. Seuil. 1982.

صدرت الطبعة الأولى سنة ١٩٧٠.

(٣) قام جيرار جينيت بجمع هذين الكتابين المتكاملين في مصنف واحد نشره بعنوان «صور الخطاب»:

Fontanier, Les figures du discours , Flammarion , Paris 1977

(4) Gérard Genette,La rhétorique restreinte, in Recherches rhétoriques, Communications, 16. éd. Seuil 1994.p.233253-.

في الثقافة الغربية، وما زالت جاثمة على قاعات الدرس في معظم مدارسنا وجامعاتنا العربية[1]، بل المقصود بها تلك البلاغة التي صاغها أرسطو وهو ينظر في طبيعة الخطاب التواصلي الشفاهي الذي ساد في عصره، أو صاغها بيرلمان وهو ينظر في مختلف أشكال الخطاب التواصلي المكتوب، مما وسَّع من مجالات تطبيق البلاغة التي لم تعد محصورة في أنواع محددة، بل أصبح كل خطاب موضوعا للتحليل البلاغي الحجاجي، كالخطاب اللغوي العادي والخطاب الفلسفي والخطاب الأدبي والخطاب الصحافي والخطاب السياسي والخطاب الديني والخطاب الإشهاري وغيرها من الخطابات التي تنسج حياتنا.

ويعزى الاهتمام الفائق بحقل البلاغة، في العقود الأخيرة، إلى عدة أسباب. منها التحول الكبير الذي حدث في نظريات النص التي أصبحت -بشكل عام- ذات توجه تداولي(التداوليات، نظرية التلقي، تداولية النص، السيميائيات..) ، ومنها الانفجار القوي الذي حدث في ميدان الاتصال؛ فحياتنا محاصرة بشتى أشكال الخطابات التي تتواصل معنا شئنا أم أبينا؛ عبر الصحف والمجلات، وعلى شاشات التلفيزيون، وفي الإعلانات المثبتة على الجدران وعلى وسائل النقل أو على اللوحات العريضة التي تحتل مساحة واسعة من الشوارع التي نتنقل فيها كل يوم، أو في مواقع الأنترنت.

ويعد كتاب فيليب بروطون «الحجاج في التواصل» الذي ننقله إلى العربية هنا، أحد

---

(١) لا يزال بعض أساتذة البلاغة العربية التقليديين في جامعاتنا يرتابون في أية محاولة لتجديد الدرس البلاغي الجامعي، ومده بنفس جديد يسهم في إخراجه من دائرته الضيقة، على الرغم من مرور ما يقارب قرنا من الزمان على دعوة الشيخ أمين الخولي إلى تجديد هذا الدرس؛ تلك الدعوة التي ظلت صيحة في واد لم يستجب لها معظم أساتذة البلاغة العربية، على الرغم من ظهور محاولات لتجديد هذه البلاغة في مؤلفات مهمة ظهرت خاصة في مصر وتونس والمغرب لا يمكن إنكارها. والحق أن البلاغة أجدر الحقول بالتجديد لقدرتها على التفاعل مع خطابات الحياة وخاصة في ظل الحراك السياسي الذي تعيشه بعض بلدان الوطن العربي التي ثارت شعوبها على أنظمة الاستبداد التي حكمتها لعقود طوال. وفي هذا السياق يمكن الاستفادة من كتابات الدكتور عماد عبد اللطيف في كلية الآداب جامعة القاهرة، الذي يسهم بجهوده في تحليل الخطاب السياسي في إخراج البلاغة من حيز الشواهد الأدبية السامية إلى حيز الخطابات العادية.

الإسهامات الغربية- التي بدأت في الظهور المتزايد منذ مطلع التسعينيات من القرن الماضي- والذي يتناول البلاغة والحجاج بالدرس. ولعل أهميته تظهر في اجتهاد صاحبه في اقتراح تصنيف للحجج مختلف عن التصنيفات الحديثة المتداولة؛ إذ يتميز بكونه بسيطا ومرنا «يسهل مبدئيا استخدامه في التحليل»؛ فقد اعتمد «عمليا أربعة أصناف من الحجج: الحجج التي تستند إلى سلطة، والحجج التي تستدعي افتراضات مشتركة، أو ما تفترضه الجماعة، والحجج التي تقوم على عرض الواقع وتأطيره بطريقة معينة، وفي الأخير الحجج التي تستدعي تماثلا. يختزل هذا التصنيف (أي السلطة، والاشتراك، والتأطير، والتماثل) كل أنواع الحجج التي تصفها المؤلفات المخصصة لهذه القضايا».

وعلى الرغم من قيمة هذا التصنيف على مستوى الإجرائي وسهولة استخدامه في التحليل، فإنه أغفل عديدا من الحجج المتواترة في الخطابات والتي اشتمل عليها تصنيف بيرلمان[1]؛ مثل عديد من الحجج شبه المنطقية التي اصطلح عليها بروطون بحجج التأطير، كحجة عدم الاتفاق وحجة قاعدة العدل وحجة التضحية وغيرها، ومثل عديد من الحجج المبنية على العلاقات السببية كالحجة النفعية وحجة التبذير وحجة التجاوز وحجة الاتجاه، ومثل عديد من الحجج المبنية على علاقات الوجود كحجة الشخص وأفعاله وغيرها.

ومع ذلك فإن التوجه العام في هذا الكتاب هو توجه إجرائي تحليلي جعل منه كتابا

(١) قام تصنيف بيرلمان للحجج على عدة أصناف؛ فهناك أولا «مقدمات الحجاج» أو نقطة انطلاق الحجاج، أو أنماط الاتفاق المسبق مثل: الوقائع والحقائق والافتراضات والقيم والهرميات والمواضع. وهناك ثانيا، التقنيات الحجاجية التي توزعت على الأصناف الآتية: الصنف الأول: «الحجج شبه المنطقية» والصنف الثاني: «الحجج المؤسسة على بنية الواقع» (وتتضمن حججا قائمة على علاقات التتابع كالحجة النفعية وحجة التبذير .. وحججا قائمة على علاقات الوجود كحجة السلطة) والصنف الثالث: «الحجج القائمة على علاقات تؤسس بنية الواقع»(ومنها الحجج التي تؤسس بناء على حالة خاصة كحجتي الشاهد والمثال، ومنها الاستدلال بواسطة التماثل كالاستعارة). والصنف الرابع: «فصل المفاهيم»(أي الحجاج بواسطة حجة الفصل).

يخاطب الطالب الجامعي المهتم بتحليل الخطابات، على نحو ما يخاطب القارئ العام[١] الذي يريد أن يثقف نفسه في مجال تحليل النصوص الحجاجية التي تخاطبه وتتواصل معه في كل لحظة من لحظات حياته اليومية. فقد كان المؤلف حريصا على تحديد الحجج تحديدا بسيطا وواضحا لا ينزع نزعة تفسيرية فلسفية، لأن ما كان يهمه-في المقام الأول- هو أجرأة هذه التقنيات الحجاجية، وجعلها عُدَّةً يسهل تطبيقها على النصوص ذات الوظيفة الإقناعية.

لكن هذا التوجه الإجرائي التحليلي لا يعني أن المؤلف قدَّم لنا تحليلا بلاغيا استوفى فيه جميع أجزاء الخطاب الحجاجي؛ فقد ظل ترتيب الخطابdispositio وأسلوبه elocutio خارج دائرة اهتمام تحليلاته التي ركزت على الحجج أو ما يصطلح عليه في البلاغة القديمة بـ «الإيجاد» inventio. يقول في خاتمة كتابه: « يتوجب علينا أن نعترف أننا لم نستوف هنا دراسة كل مظاهر الحجاج. لقد ركزنا على نقطتين أساسيتين، متكاملتين في العمق: الاتفاق المسبق الذي يضطلع بدور أساس في الحجاج، والذي يجعل منه حقا نشاطا تواصليا، والحجة التي حاولنا وصفها عبر مختلف الأشكال الملموسة التي تتخذها».

والحق أن قيمة هذا الكتاب لا تكمن في اقتراحه إجراءات منهجية لتحليل خطاب حجاجي، بقدر ما تكمن في كفايته التحليلية للحجج سواء أكانت مقدمات مضمرة انطلق منها النص أم تقنيات متجلية. وهذه الكفاية ضرورية في التحليل البلاغي الحجاجي، لأن الحجج التي يبنى عليها النص تتطلب معرفة نظرية بحدودها، على نحو ما تتطلب دربة من المحلل على التنبه لها واستخراجها. ولا شك أن فيليب بروطون كان حريصا على صياغة كتابه لأجل ترسيخ هذه الكفاية عند القارئ المعاصر الذي فرضت عليه الخطابات التي تتواصل معه أن يتسلح بالبلاغة وبتقنيات الحجاج لأجل تأويلها ونقدها عندما تنزلق إلى العنف.

---

(١) ومع ذلك نشير إلى أن كتاب بروطون يعد من المراجع البلاغية والحجاجية المهمة لعديد من دارسي البلاغة المتخصصين في العالم العربي. المترجمان

المقــدمـــة

أن تعرف كيف تحاجج ليس من قبيل الترف الزائد بل هو ضرورة. أفلا يعد افتقاد هذه المهارة، بالإضافة إلى ذلك، أحد المنابع المتواترة الكبرى للّامساواة الثقافية التي تُضاف إلى اللامساواة الاجتماعية والاقتصادية التقليدية وتعززها؟. أفلا يعد إذن العجز عن التحكم في الكلام لأجل الإقناع، أحد الأسباب الكبرى للإقصاء؟ هل يمكن وصف المجتمع الذي لا يوفر لكل أعضائه الوسائل ليكونوا مواطنين يمتلكون كفاية التخاطب، بأنه مجتمع ديموقراطي؟

والحق أن كل المجتمعات الديموقراطية تواجه مشكلا مشتركا؛ أي تلك الصعوبة التي يستشعرها عدد كبير من المواطنين في التخاطب، وذلك وفق رأي كريستوف أندري (Christophe André) وباتريك ليجيرون (Patrick Légeron) عندما قالا: «إن رهبة الكلام في حضور الجمهور هي من دون شك أكثر انتشارا بين معاصرينا»[1].

وغالبا ما يكون هذا القلق مرتبطا بالموقف الحجاجي، أي ذلك الموقف الذي ينبغي من خلاله ـ بكل دقة ـ إقناع المتلقي في إطار مهني، أو مجتمعي، أو سياسي، وفي سياق عائلي، أو إخواني أيضا.

---

(١) - ٢٠٠٠، ص ٧٤.

ينتمي الحجاج في الحقيقة إلى مجموع الأفعال الإنسانية التي تسعى إلى الإقناع. فعديد من مقامات التواصل تسعى في الواقع إلى حمل الفرد أو المتلقي أو الجمهور على تبني سلوك ما أو مشاطرة رأي معين.

يمثل فعل الإقناع بشكل عام بديلا ممكنا للعنف الجسدي. لهذا فهو يعد عنصرا أساسا في إصلاح الأخلاق التي تتضمنها الديموقراطية. في الواقع، نستطيع باستعمال القوة أن نحصل من الآخر على فعل غير مرغوب فيه بصفة عامة. فالاستغناء عن استعمال القوة يمثل خطوة نحو إنسانية أكثر؛ أي نحو رابط اجتماعي يكون متبادلا وغير مفروض.

لكن في جميع الأحوال لا يخلو الإقناع من مظاهر العنف، سواء أكانت جسدية أم وسائل قسرية أخرى. فالدعاية التي استعملت بشكل واسع طوال القرن العشرين، على سبيل المثال، تعتمد طرائق منظمة لأجل إكراه الجماهير. تمارس هذه الطرائق عنفا عقليا لا يمكن إنكاره، إلى درجة أنه استُعملت في نعتها استعارة من قبيل «اغتصاب الجماعات». على هذا النحو، سنميز إذن بوضوح، بين فعل الحجاج وفعل التطويع، بوصفهما وجهين متعارضين للإقناع.

الإقنـــاع

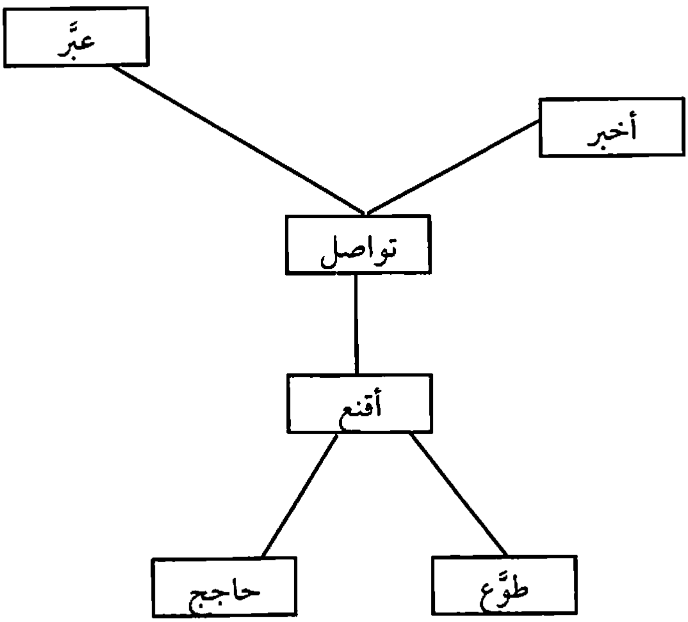
يعد الإقناع إحدى جهات القول الأساس للتواصل، الذي يكون القصد منه إما التعبير عن إحساس أو عن حالة أو عن نظرة فريدة إلى العالم أو إلى الذات، أو يكون القصد منه الإخبار؛ أي وصف موقف معين على نحو أكثر موضوعية، أو يكون القصد منه أيضا الإقناع بواسطة أدلة تحمل المتلقي على الانخراط في رأي ما. فالتعبير، والإخبار، والإقناع، ثلاثة سجلات غير مختلطة، على الرغم من أن الحدود بينها ليست دائما بالدقة التي تفترضها النظرية، وذلك بفعل ثراء الكلام الإنساني.

تتنوع الوسائل المستعملة في الإقناع غاية التنوع، وتستخدم إجراءات معقدة تمتاح

من غنى السلوك الإنساني. ولعل الغاية من هذا الكتاب جعل القارئ يندمج في وسيلة من هذه الوسائل؛ أي الحجاج، الذي تتمثل خصوصيته في تشغيل استدلال داخل مقام تواصلي.

إن تعريف الحجاج الذي أخذنا به في هذا الكتاب يضع دراسته جذريا في الحقل الذي كنا قد اصطلحنا عليه بـ «علوم التواصل». فهذا المجال يُعنى بكل ما يتصل بصياغة الرسائل ونقلها، كما يُعنى أيضا بالدلالة الاجتماعية لمثل هذه العمليات[1].

الشكل 1. السجلات المتنوعة للتواصل



(١) - انظر أيضا Miège، ١٩٥٥، و Breton، و Proulx، ٢٠٠٦.

لنتذكر فورا أن الحجاج يتضمن مُرْسِلا نطلق عليه لفظا عاما هو: الخطيب ـ ورِسَالَة، التي تتكون من الرأي الـمُشَكِّل لغرض الإقناع، والمتلقي؛ أي الآخر أو الجمهور- ويسمى هنا غالبا: المتلقي (بالنسبة إلى المصطلحات التقنية يمكن الرجوع إلى المفردات المثبتة في آخر هذا الكتاب). يندرج الحجاج إذن، بشكل واضح، في المثلث التقليدي «مُرْسِل- رسالة - مُتَلَقٍّ» الذي تدرسه علوم التواصل، بأشكالها المختلفة.

على الرغم من أن أعمالا عديدة كانت مخصصة منذ القدم للآليات الحجاجية، فالأمر جديد نسبيا عندما نراها في ضوء اصطلاحات علوم التواصل[1]. وتظل الحاجة ماسة إلى بناء معرفة في هذا المجال انطلاقا من نظرة جديدة ، وليس على أنقاض الماضي.

أفول البلاغة وانبعاث الحجاج

ابتداء من القرن التاسع عشر، لم تعد البلاغة مادة من مواد التعليم كما أنها لم تعد معرفة قائمة في المقررات المدرسية والجامعية. وحتى هذه اللحظة، كما يذكر أنطوان كومبانيون (Antoine Compagon)، كان لـ «أستاذ البلاغة اليد العليا في الثانوية لأنه كان يلقن فن الخطاب الراقي»[2]. وفي سنة ١٩٠٢ اختفى اسم «البلاغة» رسميا في فرنسا، ليستبدل بـ «درس البلاغة» درس «تاريخ الأدب»، واستبدل بتمارين الخطابة الإنشاءُ والتَّعبيرُ.

كيف نفسر هذا الأفول وما يشبه التواري، إلى أن أعادت المقررات المدرسية، منذ عهد قريب، اكتشاف أهمية الحجاج، ليس في المواد الأدبية وحدها بل كذلك في المواد الاقتصادية والاجتماعية؟.

يبدو أن هذا الانحطاط بدأ قبل القرن التاسع عشر. في نظر رولان بارت Roland Barthes «نجم هذا الأفول عن صعود قيمة جديدة هي وضوح (الأحداث، والأفكار،

(1) -Breton et Gautier, 2000.

(٢) ١٩٨٣، ص ٤١.

والعواطف)؛ وهو وضوح يكتفي بذاته ويستغني عن اللغة (أو يعتقد ذلك)، أو على الأقل يدعي فقط استخدامها بوصفها أداة، أو وساطة، أو تعبيرا. ولقد أخذ هذا «الوضوح»، منذ مطلع القرن السادس عشر، ثلاثة اتجاهات: وضوح شخصي (في البروتيستانتيزم)، ووضوح عقلاني (في العقلانية الصورية)، ووضوح محسوس (في التجريبية)»[1]. على هذا النحو، أصبحت البلاغة مجرد «لون» أو «تزيين» ولم تعد أداة للاستدلال الإقناعي.

ولا يختلف رأي أوليفيي روبول[2] Olivier Reboul ، وبالخصوص بيرلمان[3]، Perelman عن رأي رولان بارت في كون العقلانية ورفضها للمحتمل، شكلت مصدرا للصعوبة التي واجهتها البلاغة في الاحتفاظ بموقع مركزي في أنظمة الفكر الحديثة. ويمكننا، بشكل أعم، وصف هذه المرحلة بأنها مرحلة المواجهة بين «ثقافة الوضوح» التي استفادت من إنجازات النزعة العلمية والنزعة الوضعية، وبين «ثقافة الحجاج» التي ترى أن صعودها يعرقله أفول لا يتعلق في المحصلة النهائية سوى بالمظهر الجمالي للخطاب وليس بالمظهر الحجاجي[4].

وكان علينا أن ننتظر فترة الستينيات من القرن العشرين، لنرى عودة ميلاد الاهتمام بالبلاغة. فبعد فوات الأوان شهدت هذه الفترة بداية الوعي بأهمية تقنيات التأثير والإقناع وقوتها طوال القرن، كما شهدت هذه الفترة أيضا بداية هيمنة الإشهار بقوة في المشهد الاجتماعي والثقافي.

وانطلاقا من رولان بارت أدرك فريق من الباحثين في كتاب «أبحاث بلاغية[5] أن: «الانشغال بالبلاغة في فرنسا لا يمكن إدراكه بوصفه مفارقا للتاريخ أو تحديا للطلائعية.

---

(١) ١٩٧٠، ص.١٩٢.

(٢) ١٩٩١.

(٣) ١٩٧.

(4) Breton et Proulx, 2006.

(٥) ١٩٧٠

فلفظ البلاغة نفسه كان قد بدأ يفقد إيحاءاته السلبية التي ارتبطت به منذ أكثر من قرن. ندرك أن البلاغة ليست تزيينا للخطاب، ولكنها بُعْدٌ أساس للمعنى»[١]. ومع ذلك فإن هؤلاء الباحثين ركزوا أعمالهم حول مظهر ضيق، بل وخارج عن الحجاج بالمعنى الدقيق؛ أي إنهم انشغلوا بنظرية الصور أو الوجوه البلاغية. إن البلاغة، في نظرهم، عنصر من السيميائيات الجديدة؛ أي (دراسة العلامات في الحياة الاجتماعية)، وقد كانوا بذلك من روادها في مرحلة ما.

في هذا العصر، سيعاد أيضا اكتشاف الأهمية المنسية للبلاغة في تاريخ الأفكار والثقافة[٢]. ولعل عمل مارك فومارولي Marc Fumaroli المهم، أن يتيح إبراز الدور المركزي للبلاغة في ثقافة العصر الكلاسي[٣].

البلاغة الجديدة

في الفترة نفسها، تعهد القانوني والفيلسوف في القانون شاييم بيرلمان، بالاضطلاع والعمل على استثمار الموروث البلاغي، وجعل»البلاغة الجديدة» تشق طريقها. وقد حقق كتابه الضخم «مصنف في الحجاج»، الذي شاركته في تأليفه أولبرشت- تيتيكا (Olbrecht-Tyteca)، منعطفا في الحقل البلاغي. لقد قام مشروعه على إعلان القطيعة مع «التصور الديكارتي للعقل وللاستدلال»[٤]. في هذا السياق يلتقي بيرلمان بثنائية أرسطو التي يقر فيها بأن ثمة مناقشات تتعلق بالعلم وأخرى تتعلق بالبلاغة. فالاستدلال، في نظر بيرلمان يمكن أن يكون مقنعا من دون أن يخضع لحساب، كما يمكن أن يكون صلبا دون أن يكون «علميا».

يعرف بيرلمان الحجاج إذن بوصفه «دراسة التقنيات الخِطابية التي تتيح إثارة أو زيادة

(١) مقال من توقيع س.ب، ١٩٧٠، ص.١

(2) Robrieux, Meyer, 1993.

(٣) ١٩٩٤.

(٤) ١٩٧٠، ص.١

إذعان العقول للأطاريح للحصول على التصديق»[1]. والحق إننا مدينون لبيرلمان في انبعاث اهتمام حقيقي بالحجاج.

إن دراسة الحجاج بوصفه جزءا من «البلاغة» القديمة، كان محط اهتمام من قبل الفلاسفة من جهة، ومن قبل دارسي الأدب المهتمين باللغة من جهة ثانية. وكان الفلاسفة قد تبنوا موقفا غامضا من الحجاج؛ فهم يتساءلون على نحو تقليدي: هل ينطوي الحجاج على آليات تُمكّن بلوغ الحقيقة وإثبات الباطل؟ إن رفض الحجاج وخصوصا من قبل ديكارت ومن قبل التراث العقلي الذي يستلهمه، يرتد إلى الإجابة بالنفي عن هذا السؤال المطروح.

في الاستراتيجية التواصلية لا نكترث بهذا السؤال: فليس مهماً ما تتضمنه الرسالة من صواب أو خطأ، لأننا، وبصفة أساس، سنعتبر أننا نحاجج غالبا الآراء أكثر ممَّا نحاجج الحقائق والأخطاء. فالحقائق والأخطاء متروكة للعلوم التي تمتلك أحسن الوسائل لإثباتها. يرتكز استقلال الحجاج على قسمة بين الآراء من جهة، وبين الملفوظات القابلة للبرهنة عليها من قبل العلوم من جهة ثانية.

وعلى هذا الأساس، نعيد الاعتبار للرأي الذي لا يعد اعتقادا هشا أو حقيقة غير صلبة، ولكنه يعد حقا مادة حياتنا اليومية، وعماد انخراطنا في الحياة وأساس اختياراتنا الأكثر جوهرية. إن الإيمان بفضائل المساواة، على سبيل المثال، والذي يؤسس اختيارات عديدة في كل المجالات (المساواة في التصويت في المجال السياسي)، ليس حقيقة ولا كذبا، بل هو رأي قوي.

فالمساواة، بوصفها قيمة، قابلة للنقاش، يمكننا أن نذعن لها بحزم أكثر أو أقل، ويمكننا أن نحاججها بصرامة، بيد أنها تنفلت من فضاء البرهان. وسنكون ملزمين بالقول: يا للحظ السعيد ! لأن إرادة البرهنة علميا على القيم لا يمكن أن تؤدي سوى إلى النزعة الشمولية.

(١) ١٩٧٠، ص.٥.

وبالإضافة إلى الفلاسفة، يهتم رجال الأدب منذ مدة بالحجاج. فهؤلاء هم بالفعل من كانوا يتولون في فرنسا مهمة تدريسه في الأسلاك الثانوية. والحق إنها كانت مهمة ثقيلة نتيجة غموض بعض المقررات المدرسية التي تختصر الحجاج في دراسة صور الأسلوب. يُختصر فعل الحجاج في نهاية المطاف، داخل المنظور الأدبي إلى عرض جمالي يحيل إلى جاذبية الجميل، أكثر مما يحيل إلى صرامة البرهان.

وبالنسبة إلى اللسانيين، فقد عملوا على تطوير نظريات عديدة في البعد الحجاجي الموجود في اللغة. ولكن كيفما كانت تساؤلاتهم غنية ومغرية جدا - نفكر بصفة خاصة في التساؤلات التي طرحها جان كلود آنسكومبر Jean- Claude Anscombre وأوسوالد ديكرو[1] Oswald Ducrot فإنها تشكل بشكل عام بحثا في اللغة أكثر منها بحثا في المواقف التواصلية التي يقوم عليها تبادل الرأي. ومع ذلك تعد أعمالهم من هذه الوجهة الأقرب إلى إشكالية علوم التواصل.

الإغراء، والبرهنة، والحجاج؟

في الوقت الذي نطرح السؤال على الجماهير المختلفة حول تمثلاتهم لفعل الحجاج، وكيف نستعمله بشكل ملموس لأجل الإقناع، فإننا نلمس عند الأغلبية منهم، أن الأمر يتعلق بصفة خاصة، إمَّا بالإغراء، وإمَّا بالبرهنة. إن هذه التمثلات التي لا تضع نصب عينيها الحجاج تشهد على تراجع التكوين وثقافة الحجاج الضرورية في الحياة الديموقراطية.

يعد فعل الإقناع غالبا موضعا لعنف معيَّن. فالتطويع النفسي الذي استعمل على سبيل المثال بشكل عريض لأجل الإقناع في بعض أساليب البيع، ينطوي على عنف يمارَس على الآخر، كما تدل عليه التجارب التي قام بها جول Joule وبوفوا

---

(١) ١٩٨٨.

Beauvois [1]. إن وسائل الإقناع يمكنها أيضا، في هذا المنظور، أن تستعمل بشكل خفي، بل من دون أن يعرف الآخر أنه هدف للإقناع، كما نجد في الحالات التي وصفها فانس باكار Vance Packard في كتابه «الإقناع السري»[2]. إن التكوينات العديدة في مجال «التواصل»، ليست سوى تعلّم الطرائق التي تهدف إلى حصر الآخر في فخ فكري لا يمكن أن يتخلص منه إلا بتبني الفعل أو الرأي الذي «نقترحه» عليه.

نستطيع أيضا أن نقنع بواسطة طرائق ألطف. فالإغراء يستعمل غالبا لحمل الآخر أو حتى الجماهير بأسرها، على مشاطرة وجهة نظر ما. وعلى هذا النحو تحملنا جاذبية الخطيب إلى التفكير مثله.

إن عديدا من رجال السياسة ينهجون هذا السبيل بإقامتهم علاقة شبه شهوانية مع متلقيهم، وهي علاقة لا تَعَرَّى عن الإيحاء الجنسي. إن الممارسة التي ترتكز على لمس الناخب (في الغالب بواسطة قبضة اليد) تتعلق بهذه الطرائق.

لقد شكّل الإغراء على الدوام إحدى الوسائل المتينة للحمل على الإقناع الذي يأخذ أشكالا مختلفة. فاستعمال الوجوه الأسلوبية التي تُجَمِّلُ الخطاب بجعله ممتعا، سواء في التعبير الشفوي أو التعبير الكتابي، يتعلق بهذه الاستراتيجية. إن شعارا مثل: «كأس واحدة لا بأس بذلك، أما كأسان، فمرحبا بالخسارة»[3]. هذا الشعار الذي يوظف صورة محددة من صور الإيقاع، لا يستمد ما به من إقناع مما يحاججه أو مما يستدل عليه، بل يستمده من حضوره السائغ في الأذن الذي يخلق إحساسا بالوضوح.

ثمة وسائل إقناعية أخرى تستدعي شكلا من أشكال العقل المجرد أكثر مما تستدعي العواطف. يتعلق الأمر بالبرهان، أي بمجموعة من الوسائل التي تتيح تحويل إثبات أو ملفوظ ما إلى «واقعة ثابتة» غير قابلة للجدل إلا إذا أمكن أن نعارضها بملفوظ آخر

---

(١) ١٩٨٧.

(٢) ١٩٦٣.

(٣) Un verre ça va, deux verres, bonjour les dégats. (المترجم)

أقوى استدلالا. وهكذا، إذا رفعنا شيئا ثم أطلقناه دون أن نحدد له اتجاها معينا، فإن هذا الشيء سيتجه من دون مقاومة نحو الأسفل (على الأقل سيسقط فوق الأرض) متبعا خطا متأرجحا متوقعا يوصف علميا بقانون الجاذبية. ولأجل الإقناع بأن الأمر يتعلق هنا بواقعة حقيقية، يضع الباحث برهانا مقبولا من أقرانه الذين يستطيعون فحصه والتأكد منه، ومقبولا من الجمهور على أساس ما يمتلكه من ثقة في الخبراء. إن قانون الجاذبية لا يخضع للحجاج (لا يتعلق الأمر هنا برأي)، إنه يناقش بين العلماء للبرهنة عليه وتأكيده.

يبتعد الحجاج، الذي يعد وسيلة متينة لإشراك الآخر في الرأي (الذي يمكن أن ينتج عنه فعل ما)، عن ممارسة العنف الإقناعي، كما يبتعد عن الإغراء أو البرهنة العلمية. يتعلق الأمر إذن بنوع خاص سنعمل على بيان خصوصيته وكذلك المقتضيات التي تحيط بإنجازه.

موضوع مركب

في الحقيقة يبدو الفصل النظري بين مختلف وسائل الإقناع أبسط مما هو عليه الأمر على الصعيد التطبيقي. وفي الواقع تتمثل إحدى الخصائص الكبرى للأفعال الإنسانية، إضافة إلى تركيبها، في أنها تبدو دائما محركة لكل ما هو ممكن بطريقة غير قابلة للتجزيء. وهكذا لا توجد مواقف خالصة للإغراء أو للبرهنة أو للحجاج إلا نادرا. فتاريخ البلاغة كله؛ أي «فن الإقناع القديم» يهيمن عليه «الإمتاع» و«التأثير» في مقابل الاستدلال الحجاجي الصارم. على هذا النحو، فإن الإشهار الحديث، بوصفه موضوعا مركبا، يدين بفعاليته المريعة إلى كونه يراهن على كل سجلات الإقناع في وقت واحد. فكل هذه العناصر، هي في الغالب، شديدة الارتباط. وسيكون إذن من الأفضل أن نقوم بوصف هذه المواقف، حسب الحالات، مثل المواقف التي يهيمن عليها الإغراء، أو تلك التي يهيمن عليها الحجاج.

إن الرؤية الصَّلفة للحقائق الإنسانية، يمكنها أن تؤدي إلى إنكار ثراء وتشابك الوسائل المستعملة في الإقناع. وفي الغالب ما تنطوي هذه الرؤية على نهج أساس يقوم على وضع الإغراء في المقدمة، وفي الخلف هناك استخدام لعلاقات السلطة. ولا يعني وجود مثل هذا التوجه أنه يُكَوِّنُ «الطبيعة» البشرية، أو أننا خاضعون له. وفي جميع الأحوال لن نأخذ بوجهة النظر هاته في كتابنا.

إن للإغراء بكل تأكيد جاذبيته، وهو لحسن الحظ ملائم لكثير من المواقف. ولكننا سنتعرَّف هنا إلى وجود حالات متعددة، ولاسيما في كل الجدالات التي تسمح بها الديموقراطية اليوم، حيث يمكن أن يتعلق فعل الحجاج أساسا باستعمال البراهين التي تراعي المتلقي في موقف تواصلي حر. في هذا التوجه، سنعمل على تعريف الحجاج طوال صفحات هذا الكتاب، واعِينَ أن الأمر يخص، في الوقت نفسه، وصف آليات هذا العنصر الأساس في النشاط الإنساني، وإبراز كل الموارد التي يزخر بها بوصفه تقنية في التواصل، وهي تقنية جوهرية في الجدل والممارسة الديموقراطية.

الحجاج والمواطنة

يخضع وجود البلاغة بشكل واسع للاستعمال الذي يوظفها. لقد كان ميلادها داخل سياق قضائي في القرن الخامس قبل الميلاد، ثم انتشرت وامتدت بشكل سريع إلى المجال السياسي، كما يذكرنا بذلك بيير أوليرون Oléron Pierre بقوله إن الحجاج «لا يمكن أن يعمل إلا إذا كانت هناك موافقة مسبقة على فتح باب النقاش، وإذا كان أيضا من يتقدم للدفاع أو تبرير موقف ما، يرى من حقه أخذ الكلمة»[1]. والنظام الديموقراطي يكوِّن، بكل تحديد، مثل هذا السياق، و«من ثم يكاد تاريخ الفن الخَطابي يلتبس بالتاريخ السياسي»[2].

(١) ١٩٩٣، ص.١٨.
(٢) Benoit، ١٩٨٣، ص.٣٩.

لقد استوعب الرومان القدامى، مخترعو الجمهورية، جيدا هذا الطابع المركزي للحجاج مادام أنهم جعلوا منه، بشكل غير قابل للفصل، نواة لكل تعليم وأساسا للمواطنة. يتوجب علينا كذلك، من وجهة النظر هاته، ومن دون شك، أن نبذل مجهودا لكي نصبح معاصرين.

بيد أن ممارسة حجاج المواطنة تعرضت في الوقت نفسه إلى الانحراف بواسطة إمكانات التطويع التراجيدية للكلام ومن ثَمَّ للأذهان، هذه الإمكانات التي أتاحتها تقنيات التواصل في القرن العشرين، المشتقة أساسا من الجانب المظلم في المناهج القديمة للبلاغة. إن سلطة الإعلام، والتقنيات الدقيقة لِلتَّضْلِيلِ الإعلامي، واللجوء الكثيف للإشهار، تجعل التفكير في شروط الكلام الحجاجي مقابل البلاغة والتطويع، أمرا ضروريا كل يوم.

مقاربة مضاعفة للموضوع

على هذا النحو، نرى أن هذا المؤَلَّف قد كتب في الآن معا بتواضع يقتضيه بحث مستجد في الحجاج، كما كتب بكل الطموح الذي يفترضه مثل هذا البرنامج.

لقد صدر عن تصور يقترح على القارئ مقاربة مضاعفة للظاهرة الحجاجية؛ فهي تاريخية وبلاغية من جهة، وتحليلية تطبيقية من جهة ثانية.

تحدد الفصول الأولى مدلول حقل الحجاج وتصفه خصوصا من زاوية التواصل. وتسمح بالإلحاح على نقطة أساس لاستراتيجية الحجاج المتمثلة في الاتفاق المسبق مع المتلقي. هذا الاتفاق الذي يعمل، أكثر من أي شيء آخر، على وضع فعل الإقناع داخل منظور تواصلي.

إنها كذلك اللحظة التي نتساءل فيها عن المكانة غير قابلة للاختزال التي يحتفظ بها الإمتاع، والإغراء، والتأثير داخل فعل الحجاج، ولكنها أيضا اللحظة التي نتساءل فيها عن محاولات تطويع الأذهان والجماهير التي نواجهها كل يوم.

سيعثر القارئ -في الفصل الثاني خصوصا- على أدوات لتحليل الأقوال، والنصوص، والخطابات التي تسعى إلى الإقناع. إنه يقدم طريقة بسيطة تسمح بتنظيم حل شفرات هذه النصوص، التي تُفْرَضُ علينا في أغلب الأحيان، من دون أن نعرف كيفية اشتغالها.

أما باقي الفصول فتصف بكل دقة، انطلاقا أساسا من أمثلة مأخوذة من الجدال الاجتماعي والسياسي، مختلف أصناف الحجج المستعملة بشكل عام.

إن غايتنا هنا تمكين القارئ من تعلم ضبط «القوالب الحجاجية» التي تنساب داخلها مناقشاتنا. ومن دون شك، إننا نرى من خلال الأمثلة والنصوص المحللة، أن الحجاج ليس دائما تلك التقنية الوحيدة التي تعمل على إشراك الآخر في الرأي، ولكنه يعد، في الوقت نفسه، الأكثر ثراء على المستوى الثقافي، والأكثر انفتاحا على المستوى الإنساني.

الفصل الأول

حقل الحجاج

يرتبط الحجاج ارتباطا عميقا باللغة البشرية، وهو إحدى إمكاناتها الكبرى. وينبغي لكل ثقافة أيضا أن تسند له مكانة لأجل أن تتمكن هذه الطاقة اللغوية من النمو. وفي انتظار التحولات الاجتماعية الحاسمة -هذه التحولات نفسها التي سترى نمو الديموقراطية-كان من اللازم إذن توقع أن يتم إدراك الرأي بوصفه موضوع جدل جماهيري، وتحوله إلى مؤسسة.

لقد حملت كثير من المجتمعات استعدادات للكلام يمكن نعتها بـ «مقدمات ديموقراطية»، سواء في أوروبا أو في آسيا، أو في أفريقيا أو في أمريكا الشمالية، وامتد ذلك عبر مراحل مختلفة من تاريخ الإنسانية[١]. يتميز الحجاج عن الكلام التراتبي، ويسهم في بناء علاقات أكثر تعادلا بين الرجال -وأحيانا بين النساء- الذين يُكَوِّنُون هذه المجتمعات[٢].

منذ متى بنى الإنسان معرفة بالحجاج؟ إن الأمر يتوقف على ما نقصده بـ «المعرفة».

---

(1) Détienne, 2003.

(2) Breton, 2000 et 200.

بالمعنى الواسع لهذا اللفظ، يحتمل أن الممارسات الحجاجية، مهما تكن قديمة، فقد كانت ترافقها دائما معرفة عفوية وتجريبية. واليوم، حيث أصبح الحجاج ضمن مقررات التعليم، وحيث يواجه كل فرد في حياته اليومية مواقف حجاجية عديدة، فإن مثل هذه المعرفة تشكل جزءا من الرصيد الثقافي الأساس الذي يمكن أن يكتسبه جميع الناس.

ميلاد البلاغة

بيد أن المعرفة بالمعنى الدقيق، المبنية على الحجاج، وعلى المناهج وعلى الإجراءات التي تجعله أكثر نجاعة، قد ظهرت في حوض البحر الأبيض المتوسط منذ ٢٥٠٠ سنة[1]. وفي الواقع، تعد أثينا القديمة إبان القرن الخامس قبل الميلاد، الموطن الذي برزت فيه معرفة نسقية في هذا المجال باسم «البلاغة».

تمزج هذه البلاغة أول الأمر كل شيء في عجين أولي يبحث شيئا فشيئا عن نظامه ومصيره. ليست البلاغة الأولى سوى حجاج وبرهنة، وبحث عن نظام الخطاب، كما هي أيضا تطويع للآراء والأذهان، وهو ما يؤكد أن كل شيء قابل للحجاج، وأن الخطيب رجل سلطة أكثر منه رجل أخلاق ورأي. وانطلاقا من هنا، ستبسط البلاغة «إمبراطوريتها»، كما يعبر رولان بارت «بشكل أوسع وأكثر امتدادا في الزمان من أي إمبراطورية سياسية، بأبعادها ومدتها»، بأشكال مختلفة، حتى يومنا هذا. ومنذ ٢٥٠٠ سنة، وحتى بروز حقول المعرفة المختلفة في نهاية القرن التاسع عشر، أصبحت محورا يتمركز عليه التعليم.

يتعلق الأمر هنا، كما لاحظ فومارولي، بـ «ظاهرة ممتدة في الزمن، ولكنها قادرة بفعل تجذرها في الطبيعة الإنسانية، على إحداث التحولات المذهلة، من جيل إلى جيل، ومن مكان إلى مكان، ومن فرد إلى فرد»[2]. إن دراسة هذه الأشكال ستشكل من ثَمَّ مدخلا مناسبا جدا لأجل فهم أحسن، من وجهة نظر أنتروبولوجية، لتطور الثقافات.

(1) Breton et Gautier, 200.

(٢) ١٩٩٤، ص ٢.

إن تاريخ العلم والمعارف المتراكمة في البلاغة، هو أيضا تاريخ الانفصال التدريجي، منذ المرحلة القديمة، لـ «فن الإقناع» عن الكلام الجميل، ولكن أيضا مع البحث عن الحقيقة، خصوصا في شكلها العلمي. وهكذا، سنتوقف عن خلط «الكلام الجميل» بالكلام المقنع، وخلط البرهان بالنشاط الذي يتوخى الإشراك في رأي محتمل.

فعل ضروري

يتطلب تعريف حقل الحجاج القبض على خصوصية هذا الحقل الجوهري في النشاط الإنساني والإحاطة به. وهو ما سيشكل موضوع هذا الفصل. ولأجل هذه الغاية، نقف على ثلاثة عناصر:

-يفيد الحجاج أولا التواصل؛ فنحن في «موقف تواصلي» يتضمن، مثل أي موقف من هذا النمط، رسالة ومشاركين، أي دينامية حقيقية؛

-ليس الحجاج إقناعا مفروضا، وهو ما يفترض قطيعة مع التطويع- أي التأثير القسري بالمعنى الذي لا يكون فيه التطويع قائما على وسائل الإقناع؛

-الحجاج معناه البرهان، أي اقتراح الرأي على الآخرين وتزويدهم بالأدلة الكفيلة بجعلهم يذعنون له.

وعلى نحو ما نرى، فإن الممارسة ليست بسيطة. ففي الواقع، يفترض الفعل الحجاجي أن الشخص الذي يخضع له، يدرك أنه مندمج في موقف تواصلي. ولا ريب أن من يجهد نفسه للإقناع «في الفراغ»، أو من يتوجه إلى «المتلقي الكوني» -كما سماه بعض الفلاسفة- وهو شخص غير محدد، سيواجه بعض الصعوبات. في هذا الاتجاه، لا يكون الحجاج كونيا أبدا (بينما يكون الاستدلال ببرهان رياضي، مثلا،كونيا).

يفيد الحجاج -أيضا- معرفة كيف نحصر أنفسنا في إطار أخلاقي معين: فقد يكون من الأسهل أحيانا أن نقنع الـمُخَاطَبَ، على الأقل لمدة قصيرة، باستعمال وجوه الأسلوب فقط، أو براهين ناقصة. ويكون من الأسهل كذلك على من يمتلكون المهارة، التطويع

النفسي للمتلقي لأجل الإقناع. ولكن الفعل الحجاجي يفيد أيضا رفض استعمال كل الوسائل لخدمة قيمة واحدة: أي رفض تحقيق النجاعة بأي ثمن. يتضمن الاستخدام الجيد للحجاج إذن قطيعة مع عالم تقنيات التأثير القسري. لقد أعدِيَتْ البلاغة لفترة طويلة جدا بإجراءات من مختلف الأنواع. ولأجل جدل واضح يتوجب علينا الآن أن نفصل بدقة بين أنواع الإقناع.

وزيادة على ذلك، فإنه على الرغم من الأعمال العديدة والمقنعة التي أُنجِزت حتى يومنا هذا حول الحجاج، يبقى من الضروري إعادة القول على الدوام في الموضوع. إن موضوع الحجاج يتطور -من دون شك- بسرعة أكبر مما تتطور النظرية. فنمو اللغة، وصيغ التواصل، والقيم أيضا، التي كانت لها أهمية كبرى في الحجاج، جعلت منه مادة حية.

ويتوجب على النظرية أن تبقى دائما في تجدد مستمر. إن اختيار الأمثلة، الذي ظل مسألة كبرى بالنسبة إلى كل من يؤلف في هذا الميدان، هو مؤشر جيد على هذا التطور السريع. سابقا، أشار المؤلف المجهول في مقدمة كتاب La Rhétorique à Herrenius المنشور في القرن الأول قبل الميلاد، إلى ضرورة عدم أخذ الأمثلة دائما من المصنفات القديمة. ويعلن عديد من المؤلفين -مع ذلك- صعوبة وجهة النظر هاته. وهكذا سنعمد إلى اختيار أمثلتنا من المدونة الكلاسية مثلما نختارها من الأحداث السياسية والاجتماعية الجارية. وما دام لا يوجد في النهاية حجاج سوى في الجدل الديموقراطي، فإن معظم الحالات التي قمنا بتحليلها مستمدة منه.

الحجاج يعني التواصل

إن الامتياز الذي منح عادة إلى الإعلام في التواصل، أدى إلى نشر خطاطة معيارية تقوم على: المرسل، والرسالة، والمتلقي في منظور خطي. إنها خطاطة شانون Shannon ذائعة الصيت[1].

(1) Escarpit, 1976.

وإذا كانت هذه الخطاطة تطبق جيدا في حالة إذاعة الخبر، فإنها لا تطبق كما هي على فعل الحجاج. إن نقل الخبر عبر القناة يختلف في طبيعته عن تشكيل رأي ما ونقله نحو المتلقي. ويلزمنا في حالة الحجاج -إذن- أن نفكر في خطاطة ملائمة للتواصل.

المثلث الحجاجي

يمكننا بالفعل أن نميز في الحجاج بين ثلاثة مستويات:

- رأي الخطيب؛ وينتمي إلى مجال المحتمل، سواء أتعلق الأمر بأطروحة، أم بقضية، أم بفكرة، أم بوجهة نظر. إنه الرأي في حد ذاته قبل أن يتشكل في صيغة حجة. فهو ليس موجها بالقوة ليصبح حجة: يمكننا أن نمتلك رأيا، وأن نحتفظ به لأنفسنا دون أن نسعى إلى إقناع الآخرين به. أو يمكننا، بكل بساطة، إخبارهم بانخراطنا نحن فيه.

- الخطيب، وهو الذي يحاجج لنفسه أو للآخرين (في هذه الحالة الأخيرة، يجب أن يكون عقد التواصل صريحا؛ إنه المثال النموذجي للمحامي الذي يحاجج لصالح زبونه). إن الخطيب الذي يمتلك رأيا، هو من يتخذ موضعا لنقل هذا الرأي إلى المتلقي وإخضاعه له لكي يشركه فيه؛ أي أن يجعل رأيه هو رأي المتلقي.

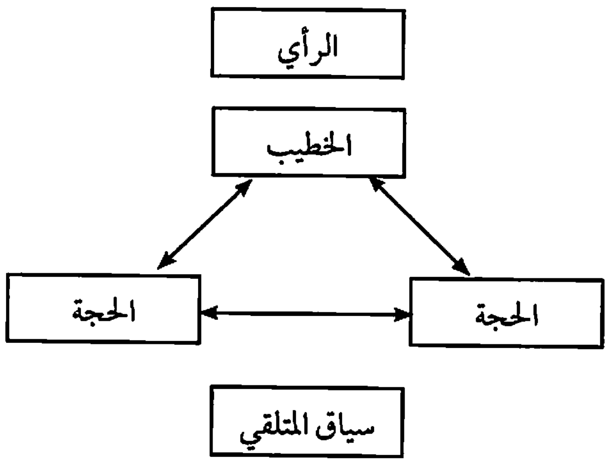
- الحجة التي يدافع عنها الخطيب؛ يتعلق الأمر بالرأي الذي يتشكل لأجل الإقناع. وينساب الرأي -في هذه الحالة- في برهان حجاجي. يمكن تقديم الحجة كتابة (في لفظ، أو في رسالة، أو في كتاب، أو في رسالة إعلامية، بواسطة الكلام المباشر أو غير المباشر (مثلا بواسطة الراديو أو الهاتف)، وبواسطة الصورة.

نقل الرأي نحو المتلقي

في مثل هذه الخطاطة، نرى أن الغرض المقصود هو أن رأيا ما يندمج في سياق من التلقي، بحيث لا يكون الخطيب والحجة والمتلقي في هذا المنظور سوى مجموعة من وسائط عملية النقل. إنه لا يوجد رأي -بكل تأكيد- من دون خطيب؛ أي من دون

كائن إنساني يحمله. ولكننا يجب أن نبقى على ذكْر من أن ما ينبغي مراعاته في الحجاج أول الأمر، ليس إبراز المتكلمين لذواتهم، ولكن أن يشاطر الآخرون أفكارهم. بل إننا نجد أنفسنا مدفوعين إلى القول إن أفكارهم تشاطرها أفكار أخرى، إذا لم تتعرض هذه الصيغة لسوء تأويل ما بعد-حداثي مفرط.

الشكل ٢ ـ خطاطة التواصل الحجاجي



لماذا يجب التمييز بين ما نفكر فيه وبين ما نتلفظ به؛ أي التمييز بين الرأي والحجة؟ هل ثمة مسافة بين هذين المستويين المتداخلين في الظاهر؟ إن جزءا من الشك الذي يحوم حول البلاغة مرتبط بوجود مثل هذه المسافة التي تعد مصدرا للفعالية الإقناعية. يجب أن نتخلى في الحجاج عن هذه المسافة، دون أن نتخلى مع ذلك عن وجود فرق بين الرأي وتشكيله. وسيكون ممكنا، بالفعل، أن نقدم الأشياء بطرق مختلفة لأننا نتعامل مع جماهير متباينة، من دون أن يكون هناك تناقض بين الرأي الذي ندافع عنه، والتشكيل الحجاجي الذي نقترحه عليه.

إذا أردتُ مثلا أن أساند ضرورة وجود سياسة وقائية ضد التسميم في مواجهة جمهورين في لحظات مختلفة؛ الأول من رجال التعليم، والثاني من رجال الأمن، سيكون من الواضح أنني أستطيع أن أجد للرأي الواحد(أي ضرورة وجود سياسة وقائية) حجاجين متباينين، ليس لأن ما يقال سيكون مختلفا عما أفكر فيه، ولكن لأنه من الضروري أن نأخذ بعين الاعتبار أننا نتكلم مع متلق معين. فبالنسبة إلى الطائفة الأولى، يمكننا في فعل الوقاية الإلحاح على البعد التربوي الذي ينطوي عليه، وبالنسبة إلى الطائفة الثانية يمكننا الإلحاح على الانخفاض المتوقع في الجرائم والجنايات التي قد تحدث. يعني الفعل الحجاجي أيضا أن ننتقي المظاهر الأساس التي تجعل رأيا ما مقبولا من جمهور معين. إن تحويل رأي إلى حجة تقوم على مراعاة متلق مخصوص هو ما يشكل بالتحديد موضوع الحجاج.

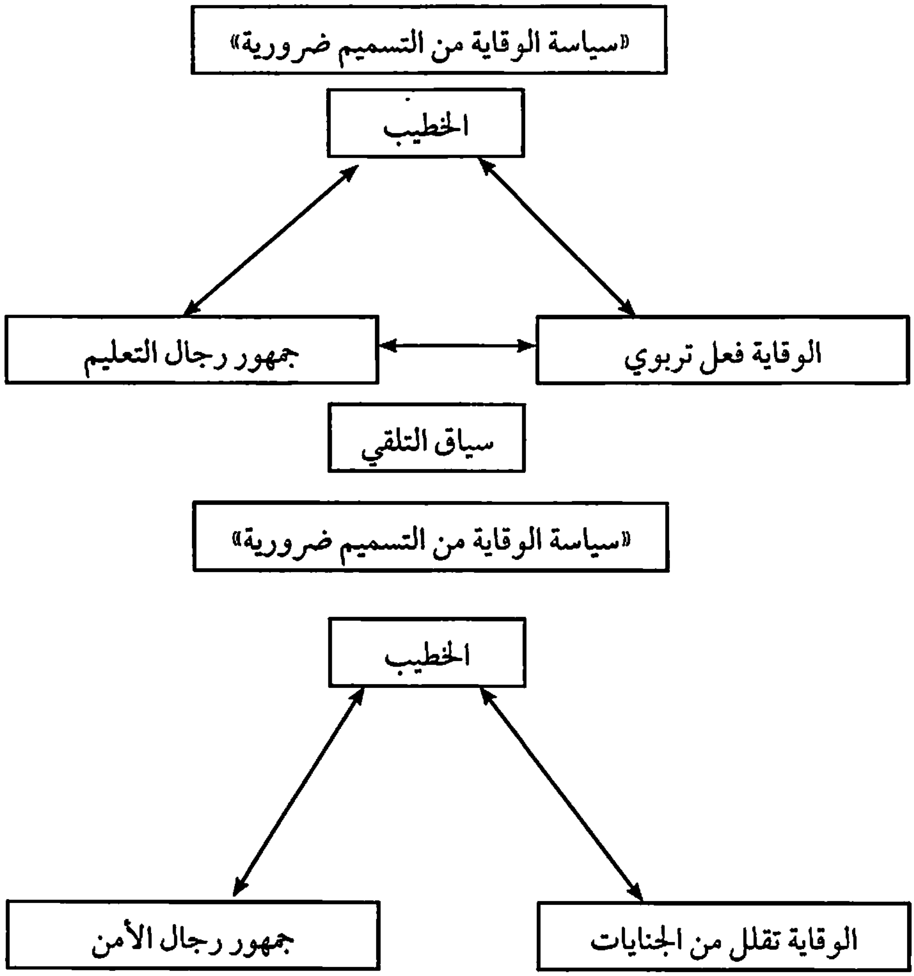
إن التمييزات المقترحة في إطار هذه الخطاطة والتي تعطيها حجمها، ليست واضحة للوهلة الأولى، خاصة إذا ما اعتقدنا، على سبيل المثال، أن الحجاج يقابل وجها لوجه بين الذوات، ويُختَزَلُ بذلك إلى خطاطة بسيطة من المواجهة الثنائية مصحوبة فوق ذلك برسالة في الوسط، غير أن بعدها النفسي أو العلائقي سيكون في الصدارة.

نميز إذن بين مستويات مختلفة من الفعل. ما هي الصلات التي سيقيمها الخطيب مع حججه؟ وما هي الروابط التي سيقيمها مع الجمهور بالتوازي مع ملفوظ الحجج؟ وما هي العلاقات التي سيقيمها الجمهور مع الحجج المقترحة عليه؟

تلقي الحجة

إن الحديث عن الحجاج بمصطلحات التواصل يقتضي الأخذ بعين الاعتبار جهات القول على مستوى تلقي الحجة. فلا يمكن اقتراح رأي على متلق خالي الذهن. كل واحد يمتلك مسبقا وجهة نظر قريبة من الرأي المقترح عليه، ما عدا في حالة الجدة القصوى أو في مجال متخصص من مجالات المعرفة (ولكن في هذه الحالة توجد الملفوظات جاج

الشكل٣: مثالان لبناء الحجة في علاقتها بالمتلقي



كما رأينا). على كل حال، فإن هذا الرأي سيندرج في مجموعة من التمثلات، والقيم، والمعتقدات الخاصة بالمتلقي المقصود. يمكننا كذلك أيضا أن نُعَرِّفَ الحجاج بوصفه فعلا يسعى إلى تغيير سياق التلقي أو آراء المتلقي بتعبير آخر. ولكي تكون هذه الصياغة أكثر دقة، فإنها ينبغي أن تراعي أن قبول رأي الآخر لا يخلو من عواقب فيما كنا نفكر

فيه سابقا، أي قبل تَعَرُّفِ هذا الرأي. لا يمتلك المتلقي، على إثر الفعل الحجاجي، رأيا زائدا على ما كان يفكر فيه سابقا فقط (فلو كانت الحالة كذلك، فإن الأمر لا يعدو كونه إخبارا) بل إنه يتحتم عليه تغيير وجهة نظره، إن لم تكن عن العالم، فعلى الأقل عن أجزاء من العالم تكون معنية بواسطة الحجة.

وهكذا، كما رأينا في المثال السابق، اقتنع رجال التعليم لأنهم غيروا وجهة نظرهم حول الفعل التربوي الذي لم يعد موضوعه متمثلا ببساطة في المعارف «الكلاسية» التي تغذي مواد مثل التاريخ، والجغرافية، أو الآداب، ولكنه صار يتمثل أيضا في كل معرفة تتيح إدراك حقائق المخدرات والتسمم، إلا إذا كانوا دائما مقتنعين، دون أن يعلموا ذلك، بأن هذه المعرفة تشكل جزءا من الفعل التربوي. وفي هذه الحال يتولّى الحجاج التذكير أو إنعاش الذاكرة.

يستنتج من هذه المقاربة الأولية لحقل الحجاج، بأننا نوجد كذلك في مجال التواصل، ما دمنا نراعي الآخر في خصوصيته، كما نوجد في الوقت نفسه في مجال العمل(وهاتان الخاصيتان تعملان بالتوازي). يفيد الحجاج أولا، التأثير في رأي المتلقي بحيث يرتسم فيه فراغ أو مكان للرأي الذي يقترحه عليه الخطيب. وبمعنى أصح، فإن الحجاج هو بناء تقاطع بين العوالم الذهنية التي يعيش فيها كل فرد.

الحجاج قضية أخلاقية

إن كل فعل يستدعي من فوق الأخلاق التي تضع حدوده انطلاقا من المعايير الخارجة عن اشتغال الفعل نفسه. ويظل الحجاج، من دون هذا الاستدعاء، محكوما عليه بأن يمتلك معيارا واحدا هو الفعالية. والحق إنه لا يمكن أن نحكم على فعل بناء على هذا المظهر الوحيد .

يقودنا الحجاج «بأي ثمن» إلى التطويع الذي يرادف قولنا: «لا تهم الوسائل». فالأخلاق التي تستدعي الحدود، هي أولا وقبل كل شيء سياج. إن سلطة اللغة، مثل

إمكانات التأثير القسري الواسعة جدا للأذهان، والانجذاب نحو المعرفة «الموضوعية»، قوية بحيث تصبح الأخلاق ضرورة حيوية لأجل أن يتمكن الحجاج، ليس فحسب أن يجد طريقا مستقلا في خضم جميع هذه الإمكانات، ولكن لأجل أن يتمكن من تحقيق وجوده.

كثيرا ما نقدح اليوم في الحجاج عندما ننظر إليه بوصفه بلاغة ونلح على تجاوزاتها. ولكي لا نعيد تأكيد الحدود بصفة دائمة، كما سبق أن حاولنا القيام به في مؤلف آخر كان مخصصا كله للتطويع[1]. فالحجاج هو أن نؤكد أيضا بكيفية ملموسة أن ليس كل شيء تأثيرا قسريا أو عقلا لا إنسانيا.

ينحصر البعد الأخلاقي في الحجاج إذن في ثلاثة أسئلة:

-هل كل شيء قابل للحجاج؟

-هل كل الحجج صالحة لأجل الدفاع عن رأي؟

-هل توجد حدود للتأثير الذي يمكن أن نحدثه في المتلقي؟

وتبعا للأجوبة التي نقدمها لكل سؤال من هذه الأسئلة الثلاثة، سنتموضع داخل الفضاء الحجاجي... أوسنخرج منه.

حقل المحتمل

هل كل شيء قابل للحجاج؟ سبق لنا أن بيّنّا بتعريفنا لموقف التواصل الحجاجي النمطي، أنه يعمل على وضع «الرأي» في وضع ملموس. وقبل كل شيء نقول: على الرغم من الاستعمال الذي أضعف معنى «الرأي»، فإنه يظل حقيقة قوية تشير إلى ما نعتقده وإلى ما يرشد أفعالنا ويغذي أفكارنا منذ البداية.

(1) Breton, 200.

ليس الإنسان مجموعة من الآراء فقط، ولكن آراءه تسهم بشكل واسع في تكوين هويته الإنسانية، وبصفة خاصة في تكوين هويته الاجتماعية.

إن الرأي، بهذا المعنى، هو مجموع المعتقدات، والقيم، والتمثلات حول العالم التي يشكلها فرد من الأفراد لكي يحقق ذاته. لكن الرأي ليس كُلاً، لأنه متحرك، يتغير دائما ويخضع لغيره، ويوجد في مجرى من التبادلات المستمرة. إنه يتميز عن اليقين أو العقيدة اللتين تتعلقان بأنماط أخرى من النقاش (لكنهما لا تقعان بالتأكيد خارج فضاء الشك).

ثلاثة مجالات تنفلت من الرأي لتتعلق باليقين أو الوضوح، وهي: العلم، والدين، والعواطف.

الرأي والمعرفة العلمية

لا تخضع المعرفة العلمية للرأي. وبسبب انفصاله عنها تاريخيا لحسن الحظ، استطاع أن يحتفظ بوجوده. إن الموقف المناقض لهذا الانفصال هو وجود حقل مقفل، يصعب ولوجه...من قبل الذين لا ينتمون إليه. إن النتائج العلمية لا تناقش -ولو أن العلماء يناقشون مع بعضهم بعضًا، قضايا عديدة في المنهجية-؛ إنها تفرض نفسها على الجميع، وبهذا لا تُكوِّنُ رأيا. فقوانين العلم تتوجه إلى متلق كوني. ولكن، يمكن القول: إن الأمور العلمية، هي أيضا تخضع للنقاش بكثافة أحيانا، مثلما تشهد على ذلك قوة المناظرات والمجادلات التي تَهُزُّ هذا العالم بانتظام. توجد بلاغة علمية فيما يبدو تختلط بالقواعد التقنية الخاصة بهذا الوسط. بيد أن هذه القواعد خاصة بالوسط العلمي ولا تهم سوى العلماء.

ومع ذلك ألا يوجد شيء من العلم في آرائنا؟ ألا تسهم الوقائع في الحجاج؟ وهل هذا الانفصال تام؟ في هذا الموضوع لا نشك في أن ثمة إجراءات مقبولة لتحويل بعض المعارف العلمية إلى آراء. فبعض الوقائع العلمية تغذي معتقداتنا،أحيانا، حتى بعد أن تكف عن أن تكون وقائع بالنسبة إلى العلماء أنفسهم بسبب تقدم المعارف.

إن أحد رهانات الحجاج يتمثل في رقابة بعض تحولات المعارف إلى رأي وشرعيتها. هكذا مثلا، فإن سلم درجات التسميم بالمخدرات الذي أنتجته لجنة الأخلاق الفرنسية بناء على قاعدة النتائج العلمية، لم يبرز إلا عندما تحول إلى رأي. لقد وصل العلماء الذين اتخذوا معيار درجة إصابة الجهاز العصبي القابلة للقياس، إلى خلاصة مفادها أن الماريخوانا[1] أقل تسميما من التبغ، وأن كثيرا من المخدرات التي تسمى بـ «الصلبة» لا ينتج عنها أي مفعول على الاضطراب الفيزيولوجي (مثل ال LSD).

ولكن الجدال القائم حول الإباحة القانونية لبعض المخدرات أو منع بعضها الآخر، إذا كان يتغذى على الوقائع، فإنه بذلك يلوذ بالحجج غير العلمية. نستطيع أن نقرر الاستمرار في التشريع للمنتوجات السامة جدا، مثل الكحول أو التبغ، باسم قيمة الحرية الفردية، على سبيل المثال، واندحارها الملموس، والتي تمثل حق تصرف كل فرد في جسمه.

وحول قضية أخرى، وهي تلك التي تتعلق بمعرفة ما إذا كانت الأرض هي التي تدور حول الشمس، يبدو أن ثمة قليلا من العلم في آرائنا السائدة: فقد بَيَّنَ تحقيق أجري أخيرا، أن قسما كبيرا من السكان الفرنسيين يذهبون إلى أن الشمس هي التي تدور حول الأرض.

ما الفرق، بعد هذا، بين المعرفة والرأي؟ يستنتج من ذلك أن أحدهما يقترن بالموضوعية والحقيقة، على الرغم من أن الأمر هنا لا يتعلق سوى بالبحث عن نموذج مثالي، بينما يقترن الآخر بالذاتية، أو بما ما أسماه بيرلمان بـ«المحتمل»، استنادا إلى أرسطو. إذا كان الرأي يقينيا، وإذا لم نكن مخاطين سوى بالبدهيات، فإن الآلة الحجاجية، ومعها الرابط الاجتماعي سيحكم عليهما بالولادة الميتة، لأنه لن يوجد شخص في وضع يكون فيه قابلا للإقناع. وسنصبح في عالم لا إنساني، اختزل إلى آلة لا تعمل إلا على تبادل المعلومات بصفة موضوعية.

---

(١) نوع من المخدرات.(المترجم).

هناك مفارقة خطيرة لأنه يمكننا أن نذعن بكل قوة إلى رأي لا يعدو أن يكون محتملا. في الواقع لا يجب أن نخلط بين المحتمل والهش، وبين الرأي والفكرة المتفسخة. يتحدث بيرلمان أيضا في هذا الموضوع عن الإذعان المتغير، مستعيدا، على هذا النحو، نبل نمط من الفكر الرافض للدوغمائية والهشاشة.

الرأي والعقيدة الدينية

يكوِّن الدين بعد العلم حقلا آخر لا يخضع للحجاج. فالإيمان؛ أي الإيمان الحق، و«الساذج»، يتم تبادله وتلقيه بوصفه بداهة لا يخضع للتفسير ولا للحجاج. إن الاعتقاد بوجود دم المسيح في الخمر، وبمعراج النبي، أو بأن الله هو الذي أملى بنفسه ألواح القانون والتوراة، ليس رأيا. إنه بالمعنى الدقيق أكثر من هذا، بل خارج عنه.

ليس الوعي بالمقدس، فيما وراء الأشكال التي يأخذها، كما أشار إلى ذلك ميرسيا إلياد (Mircea Eliade)، لحظة في تاريخ التطور، ولكنه مكون لا زمني من مكونات الإنسانية. ولكن هنا أيضا، سنعترض على أن كل شيء في الديانات ليس وحيا خالصا أو إيمانا تكتنفه الأسرار، بل هناك أيضا الجدالات والمناقشات. فعلم الأديان هو كذلك موضع نتبادل فيه الإقناع.

ومثلما في العلوم، يلزم هنا أن نميز بين الإجراءات الخاصة بمعتقد ما، وبين الحجاج الذي يخص كل فرد في شموليته. فالتلمود مثلا، الذي نعرف القيمة التي يحظى بها في الديانة اليهودية، يعتمد على تفعيل إجراءات النقاش المقننة والمشَفَّرة في التوراة. ولا يخطر ببال أي أحد أن يعمم هذه الإجراءات على المجتمع الإنساني كله لأجل تأسيس قواعد كل جدال. توجد بالطبع بلاغة متحزبة، ولا تنفلت من هذا العيب ديانات عديدة تفضي عند الاقتضاء إلى قهر جسدي (نتذكر اللجوء إلى استعمال التعذيب الجسدي خلال التحقيق) أو إلى إرادة الاستحواذ على الفضاء العام كله (كما تشهد على ذلك بعض التيارات الراديكالية في الإسلام). لكننا سنترك هنا حقل الدين بالمعنى الدقيق،

لنلتحق بحقل بلاغة السلطة، وأحيانا بحقل الحجاج فقط. ليس من قبيل المصادفة أن يحتفظ الرهبان المسيحيون بتعليم البلاغة، في الوقت الذي كان فيه التعليم العمومي زاهدا في تلقينها ابتداء من نهاية القرن التاسع عشر.

الرأي والعواطف

هناك حقل آخر لا يخضع للرأي، وبالتالي لا يخضع للحجاج. إنه حقل العواطف، وسواء أتعلق الأمر بالجمال أم بالحب، أو بالأحرى بالكراهية، فإن هذه السلسلة الواسعة من العواطف الإنسانية التي تحركنا وتثير مشاعرنا، لا شأن لها أبدا بالآراء. وعلى هذا النحو نمتلك ترسانة من الأقوال الشعبية لأجل إجراء الفصل بين الآراء والعواطف؛ فالحكمة الشعبية التي تقول: «لا مشاحة في الأذواق والألوان»، تضم في صيغة واحدة الجمال والحب والطبخ، وهي كما نعرف لا تخلو من صلة قرابة. وقد يُعترض بأن العواطف أحيانا تخضع للحجاج، ولكن لا حاجة أن يكون المرء مرشدا في الحياة الزوجية، ولا أيضا عالما نفسانيا مرهفا لأجل معرفة أنه عندما يحاول أحد الأزواج إقناع شريكه بأنه «يحبه»، هنا تكمن القضية. وعلى المنوال نفسه، فإن التفسير في مجال الجمال، الذي ينفتح بالفعل على الرأي، ينفلت بهذا الفعل من الفن نفسه، مثلما يشهد على ذلك النداء القوي لجورج ستاينر (Georges Steiner) «للتجلي»[1] Réelles présences. ليس التفسير هو الفن، وقد يحدث أن يخنق الأول الثاني ويجعله عقيما.

الرأي والخبر

التمييز الأخير الذي يسمح لنا بتوضيح ما يُشَكِّلُ موضوع الحجاج: هو التمييز بين الرأي والخبر. هذان العنصران الـمُكَوِّنَان للتواصل يسعيان ألاَّ يكونا ملتبسين، على الرغم من أن الحدود التي تفصلهما دقيقة في الغالب. فالحجاج لا يروم نقل الخبر أو

(١) ١٩٩١ «والتجلي» عبارة يستعملها المسيحيون الكاثوليك للدلالة على تجلي السيد المسيح في الحياة اليومية لكل مؤمن. (المترجم).

جعله مشتركا، بل يروم نقل الرأي وتبادله. يستثني أرسطو من حقل الحجاج، دفعة واحدة، كل ما له صلة بالبداهة المباشرة. مثل الاستشهاد على حدث يستدعي قولنا: «الثلج يسقط». في هذه الحالة، يكون عقد التواصل الذي يربط الشاهد بالمتلقي، عقدا إخباريا لا يمت بأية صلة إلى الحجاج. بيد أننا نلاحظ أن الملفوظ نفسه «الثلج يسقط»، يستطيع في موقف تواصلي آخر أن يكوِّن عنصرا حجاجيا: «الثلج يسقط، إذن، فَلْنَبْقَ في الدفء».

ماذا يعني الرأي؟ إنه وجهة نظر تفترض دائما وجود وجهة نظر أخرى ممكنة (وهو ما يقتضي وجود الحجاج)، أو وجهة نظر تتعارض مع آراء أخرى في سياق جدالي مثلا. ما هو الخبر، إن لم يكن سوى نظرة إلى الواقع الذي يسعى إلى أن يكون فريدا، وإلى أن يكون خلاصة الشواهد المتوافقة؟ وسنقول إن هذا لا يوجد قط، وإن الخبر هو دائما ذاتي، لأنه يُنتج من قِبل البشر. فهو ليس سوى تمثل للواقع. ويكمن الاختلاف في عقد التواصل الذي يفترض، في حالة الخبر، أننا نسعى في الغالب إلى نظرة موضوعية، على الرغم من كوننا لا نتمكن من تحقيق ذلك تحقيقا كافيا.

وزيادة على ذلك، فإن الخبر، هو أيضا المادة الأولية التي تتناولها الآلات المعلوماتية. ولكونها تحديدا «موضوعية»، فإن الآلات، التي لا رأي لها، تستطيع معالجتها. وفي الحقل الصِّحَافي يكون هذا التمييز بين الخبر والرأي جوهريا جدا، ويحدد الواجبات الأدبية للصحافِي الذي لا يقوم بالعمل نفسه في حال إخبار الجمهور أو في حال تبليغه برأيه بوصفه مُعَلِّقا أو مدون أخبار.

فضاء عمومي علماني

إن الكلام على هذا النحو عن الرأي، يتيح تحديد حقل الحجاج وحصر حمولته. وحين يعرَّف الرأي بوصفه ينتمي إلى المحتمل، ويتميز في الوقت نفسه عن العواطف، والمعتقدات الدينية، والمعارف العلمية، فإنه يتيح إنارة فضاء الجدال الذي يمكن نعته بـ «الفضاء العمومي العلماني». إن هذا الفضاء هو فضاء حياتنا اليومية. فالحجاج،

أساسا، هو قبل كل شيء حجاج حياتنا اليومية. وهو مصنوع من عوالم من التمثلات التي نتبادلها مع كل البشر، ومصنوع من الاستعارات التي نسكن فيها، والتي تساعدنا على بناء رؤيتنا للأشياء والكائنات.

إن هذه العوالم خلقها الحجاج، وهو الذي يعمل على تغييرها. وهو الذي يُكَوِّنُ ديناميتها الأساس، وهو الآلة التي تُشَكِّلُ المادة الخام للمعتقدات، والآراء، والقيم.

في هذا السياق، يكون الحجاج جوهريا في الروابط الاجتماعية. إن «علمانية» الفضاء الذي يتطور فيه الحجاج ويتحدد، تُعَدُّ بُعدا أساسا في الحجاج الذي يتيح له أن ينأى عن الدوغمائية (وليس معنى ذلك أن العلم أو الدين في حد ذاتهما دوغمائيان، ولكن تعميمهما على الفضاء العمومي هو ما يجعلهما كذلك). وخارج الحقل الذي يخول لها مصداقيتها، ويمنحها نسبيتها، تعمل المعرفة العلمية على تحويل آرائنا المحتملة إلى إيهام بالحقيقة. وسنحرص جيدا، في هذا المنظور على اعتماد الفكرة العلموية القائلة بأن العلم وحده القادر على إعمال العقل. ولكن للرأي أيضا عقلانيته الخاصة.

الانسجام بين الرأي والحجة

لا يجري الحجاج على كل شيء، فهو مقصور على الرأي. حين يتم ترسيخ هذه القاعدة، سنقبل أنه يلزم أن يتوفر انسجام بين الحجة المعروضة والرأي الذي هو تشكيل لها، وأنه لا يمكننا إذن أن نستخدم أي حجة كيفما كانت. ولتوضيح ضرورة الانسجام بين الحجة والرأي، نسوق مثالا نموذجيا؛ نصادف أحيانا وسيلة بلاغية تقوم على أنك قد تتصدى إلى خصمك بأن تسند إليه صفة أو بالأحرى عيبا يعمل على استغلاله ليجعلك في موضع خصومة. فكثيرا ما سمعنا، في مناقشات مجلس النواب، أن نائبا من أقصى اليمين، الذي اعتُرض على تطرفه، يرد التهمة الموجهة إليه على من اتهمه، ناعتا إياه بالفاشي، وأنه لا يقبل حرية التعبير، إلخ...

إن رأي النائب اليميني المتطرف لا ينسجم مع حجته، لأنه لا يمكن مؤاخذة شخص على امتلاكه صفة نرتضيها لأنفسنا.

وفي السياق نفسه، فإن باتريك سيباسطيان (Patrick Sébastien)، وهو منشط برنامج «لِنُبَادِرْ» في القناة الفرنسية الأولى، كان قد صرَّح، بعد أن واجه رفض بعض النجوم المشارَكَة في البرنامج، ليس بسبب درجة المشاهدة وهي عالية جدا، ولكن بسبب فظاظة تصوره للعمل التلفزيوني: «هؤلاء الناس لا شرف لهم، إنهم تجار»[1].

إن هذه الحجة، زيادة على كونها لا ترضي التجار (فأغلبهم، طبعا، مثل سائر الناس، لهم «الشرف»)، فهي انقلاب غريب لأن فظاظة البرنامج ليس لها هدف آخر سوى الرفع من المداخيل الإشهارية المحصل عليها «بالاجتراف الواسع».

إن استعمال حجة بعيدة جدا عن الرأي الذي ندافع عنه، يمثل أيضا الديماغوجية التي تروم تدعيم الرأي بالقيم التي تستهوي المتلقي وتستجيب له، لأجل ضمان شعبية سياسة معينة. يفترض الحجاج فرقا بين رأي الخطيب ورأي المتلقي، وهو بهذا يكون فعل تواصل بشكل عميق. وإذا شئنا أن نأخذ بالتناوب الذي اقترحه فرانسيس جويي (Francis Goyet)، فإن الحجاج لا يقوم على الإقناع في الخلاء ولا على إقناع المقتنعين.

تلح هذه القاعدة على التناغم بين الرأي والحجة، وبالأحرى، على تضامنهما الحميم. وهكذا فإن المرأة التي تريد إقناع زوجها، المناضل اليساري، بأن يشاركها أشغال البيت يمكنها جيدا أن تثير موضوع المساواة بوصفها قيمة أساس تستوجب توجيه السلوكات اليومية من ضمنها المساواة بين الرجل والمرأة في الأشغال المنزلية. ومع قليل من الحظ، يتوجب على الحجة أن تحمل «المساواة» بوصفها نظريا قيمة من قيم اليسار. ويلزمنا أيضا، حتى نكون في فضاء الحجاج، أن تتبنى الزوجة هي أيضا هذه القيمة الأساس.

إذا كانت الزوجة تستعمل الحجة فقط، لأنها تعرف أن المتلقي(زوجها) سيتأثر بها بكل تأكيد، من دون أن تشاركه هي نفسها ذلك، فلن يكون هذا سوى ضرب من

---

(١) ذكر من قبل (Sylvie Kerviel) Le Monde، بتاريخ ٢١ أكتوبر ١٩٩٥.

اللؤم. يمكن ألا تؤمن المرأة بالفعل أَلْبَتَّةَ بالمساواة بين الجنسين، وبالتالي ترضى بوضع اجتماعي ترتاح له، بيد أنها لا تحب غسل الصحون (وفي هذه الحالة نرى جيدا الجواب الذي يمكن أن يعترض به الزوج بشرط أن «يحل جيدا شفرة» الرسالة، ويميز بالضبط، التناقض بين رأي الزوجة وبين الحجة التي تستعملها).

ولكن لماذا سنقول إنها لم تستعملها؟ لماذا يلزم معارضة الأخلاق بالفعالية؟ بالنسبة إلى الأخلاق، فإنها اختيار شخصي، وإذا فضلنا الدفاع عن آرائها بالوسائل التي تطابقها، فإنه من الأفضل اللجوء إلى الحجاج.

بالنسبة إلى نجاعة الحجاج، ليس من الواضح أن حجة قصيرة المدى لا تعود في نهاية المطاف ضد صاحبها، حيث تكون مصداقيته معرضة للشك في الوسائل التي يستعملها لأجل آرائه. وليس من النادر بالنسبة إلى البائعين الذين تلقوا تكوينا في استخدام تقنيات التأثير الذهني القسري أن يتخلوا عنها في ميدان العمل لأجل إقامة علاقة ثقة مع زبنائهم تعود عليهم بفائدة تجارية أكثر.

حرية الجمهور في الإذعان للرأي

تحيل الصفة الاحتمالية للرأي المتعلقة بقمة خطاطتنا في التواصل، بشكل لا بأس به، إلى القاعدة الثالثة في الأخلاق، والتي تريد من المتلقي أن يكون حرا في الإذعان للأطروحة (الرأي) المقترحة عليه. فهذه القاعدة يمكنها ألا تكون سوى نتيجة بسيطة للطابع الاجتماعي للرأي. وبالفعل، إذا كان الخطيب لا يذعن إلا بصفة متغيرة لما يدافع عنه، فإنه لا يستطيع إلا أن يطلب الشيء نفسه من المتلقي، أي قوة الإذعان نفسها، وهو ما يتضمن حرية ما للجمهور. غير أن ثمة في الواقع نوعا من التناقض في محاولة إقناع شخص ما بما نعتقده، وذلك بإثبات ليس فقط أن ما نعتقده هو مجرد احتمال، ولكن زيادة على ذلك اقتراح عند الاقتضاء عدم الإذعان للرأي المقترح.

فلنقل حالا، إن هذا التناقض -وهذا سيدلنا على بعض حدود التمثل الحجاجي- قد تم استدراكه بواسطة تقنيات تطويع الأذهان. يبين جُول و بُوفُوا جيدا، في كتاب

حافل بأمثلة من مثل هذه التطويعات[1]، أن عنصرا مهما من الاستراتيجيات التي تعتمد الإقناع بواسطة التأثير القسري، تتطلب بالضبط حمل المتلقي على أن يعتقد أن له كامل الاختيار. وفي هذه اللحظة المحددة بشكل عام، يستسلم بكل سهولة لِلحِجَاج الخطيب أو الطالب. إن الفرق، في هذه الحالة، بين الحجاج والتأثير القسري يستند إلى «الحمل على الاعتقاد أن...». لا يوجد في الحقيقة تناقض إلا إذا كان المتلقي في الواقع حرا في اختيار رأيه.

ولنذهب أيضا أبعد من ذلك: ألا يوجد في الحقيقة حجاج إلا عندما يضطلع الخطيب، المهيمن على اللحظة الخطابية حتى النهاية، بوظيفة تدبير العلاقة مع المتلقي، ويبذل كل ما في وسعه ليخلق موقفا تواصليا يكون فيه الآخر حرا بالفعل؟ ألا تكمن هنا مسؤولية كل خطيب؟ وإذا انساق وراء رغبته في الإقناع، أفلا يخاطر بالسقوط مرة ثانية في الاستعمال متعدد الاتجاهات للتقنيات التي تتيح سجن الجمهور في فخاخ الكلام، إلى أن يُسَوِّغَ كلامه؟

ونرى هنا جيدا الرهانات الملموسة التي تُرسم وراء تصور للحجاج ينأى عن القسر، وذلك بواسطة تقريبه من موقف تواصلي معين.

ليست الأشياء -في الحقيقة- بهذه البساطة، وإذا كنا نمتلك الشجاعة في مساءلة ممارساتنا اليومية، فإننا سنرى أن اللجوء إلى التأثير القسري فيها ليس نادرا. ولهذا الأمر علة بسيطة: وهي أن التطويع -في الغالب- أكثر فعالية من الحجاج، على الأقل على المدى القصير. وتتعزز هذه الظاهرة في مجتمع يمنح في الغالب الامتياز للفعالية بوصفها قيمة، كما يمنح الامتياز لليقين على الشك، مهما يكن الأمر.

التدخل في علاقة الخطيب بالمتلقي

من الأنجع في الواقع التدخل بطريقة قسرية في علاقة الخطيب/ المتلقي لأجل

(١) ١٩٨٧.

«تمرير» الحجة، من أن نترك السبيل الأطول والأصعب ولكنه أكثر حرية يمضي على النحو الآتي: الرأي/ الخطيب/ الحجة/ المتلقي.

إن إمكانيات التدخل المباشر في علاقة الخطيب/ المتلقي عديدة ومعروفة جدا، ومتداولة، وليست كلها موشحة بمحسنات تطويع الأذهان السوداء. فاستراتيجيات الإغراء مثلا، التي تستعمل كثيرا في التواصل السياسي، هي حجاج إذا ظلت ثانوية توضح حجة من الحجج، ولكنها تخرج عن الإطار الحجاجي إذا قام استدعاء العواطف مقام الحجة، وشكّل الوسيلة الوحيدة لنقل الرأي. فالإغراء في حد ذاته لم يكن أبدا محل إدانة، واستعماله في سجل العواطف يكون في الغالب حاملا لدينامية ملائمة لتأسيس العلاقات.

وحين يستعمل الإغراء خارج حقله الأصلي، فإنه يصبح قسرا وعنفا في حين يمكن أن يكون الحجاج محل علاقات سلمية. يؤدي استعمال الإغراء في الغالب إلى ما نسميه بالمزيج[1]. من هنا ذلك السؤال القديم الذي تصطدم به البلاغة منذ زمن طويل، إن لم يكن منذ أصل نشأتها. وخير شاهد على ذلك الحكاية اليونانية القديمة التي تحكي عن براكسيطيل (Praxitèle) محامي امرأة جميلة[2] ولكنها قاتلة فظة لعشيقها، حين عجز عن تقديم حجة لإقناع القضاة، فلجأ إلى فك أزرار لباس المتهمة حتى يظهرها للعيان عارية تماما. وعندما طرح سؤاله: «هل تستطيعون إدانة امرأة فائقة الجمال؟»، أجابت هيئة المحكمة «لا». يلزم القول إن الجمال كان له مزايا قديمة لم يعد يمتلكها، إلا إذا رأينا في المحرك الفريد لعديد من الإعلانات الإشهارية المعاصرة التي تظهر امرأة جميلة جنب سيارة، أو جنب آلة غسل الصحون، أو أي شيء آخر أملا في العدوى، مزجا لأحدهما

(1) L'amalgam.

(٢) تذكر المراجع هذه الحكاية بشكل يختلف عما هو وارد في هذا الكتاب، فقد كانت هناك فريني Phryné، امرأة فائقة الجمال، ذات ثراء وشهرة في أثينا، كانت تمتهن الدعارة الراقية، وهي التي ألهمت براكسيطيل النحات الإغريقي (٣٩٠-٣٥٥ قبل الميلاد) لنحت تمثالها وتمثال أفروديت Aphrodite. أما المحامي فهو هيبيريد Hypéride. (المترجم)

بالآخر في سجل المرغوب فيه، ونسخة مستحدثة لهذه الحكاية القديمة. يمكننا أن نسخر من اللجنة الإغريقية باسم الفكرة التي نكونها نحن حول العدالة، ولكننا سنضطر إلى التقليل من سخريتنا من الفكرة التي تتمثل في أننا نشتري بكثافة منتوجات بدعوى أننا مزجنا فيها على الرغم منا مقاطع شبقية.

وفضلا عن ذلك، يعد المزج أحد محركات القول، أو الفكاهة العنصرية، مثل ما هو موجود في مثال التلاعب اللفظي المقزز الملقى أمام أحد عشر مليونا من متفرجي القناة الفرنسية الأولى، في أحد برامج فيليب بوفار (Philippe Bouvard)، حيث طرحت قضية «المسلمات» «اللواتي يسرقن [يتنقّلن] من متجر كبير لآخر»[1]. إن الدعاية في الأشكال المضللة إلى أقصى حد، التي خولها لها القرن العشرون، تبقى النموذج المرجعي لتطويع المتلقي لجعله يقبل، طوعا أو كرها، بعض الآراء. وتكمن الدعاية أساسا في التطويع الذهني للمتلقي المضاعف في الغالب باستعمال وسائل القسر الجسدي لتكييفه حتى يتلقى رأيا معينا. لقد نسينا كثيرا، على سبيل المثال، أن الفضل في تأثير الفعل الرهيب لرجال الدعاية في النظام النازي، وعلى رأسهم الشرير جويبلس (goebbels) على الشعب الألماني لا يعود إلى الخطابات وأشكال تنظيم الجماهير بشكل جمالي جيد فقط، ولكنه يعود أيضا إلى الجيسطابو[2] (la Gestapo)، ورجال البوليس السياسي الآخرين الذين كانوا يهددون بالاعتقال أو بالأسوأ من ذلك، كل معارض متوقَّع. فالتحكم في الجماهير يتحقق كذلك بواسطة قمع المتلقين.

التدخل في علاقة الحجة بالمتلقي

إن الوسيلة الأخرى التي تسعى إلى جعل المتلقي يفقد حرية الإذعان للرأي المقترح

---

(١) برنامج بُثَّ بتاريخ ٢٨ ديسمبر ١٩٩٤. يعد فعل «voler» في اللغة الفرنسية من المشترك اللفظي؛ فهو يدل على السرقة وعلى الطيران. فالمستمع يمكنه أن يفهم بأن المتكلم يصف تنقل المسلمات بين المتاجر، كما يمكنه أن يفهم ارتكابهن للسرقة المتكررة. (المترجم)

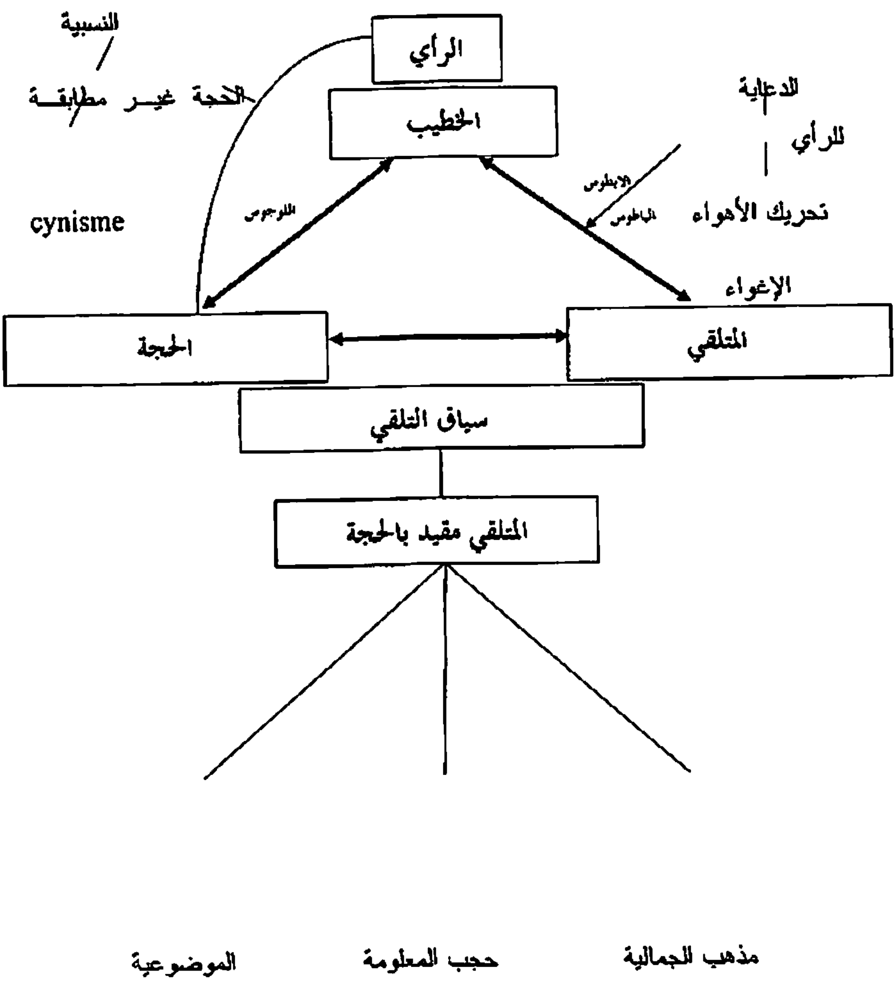
(٢) البوليس السري السياسي للدولة في ألمانيا النازية من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٤٥.(المترجم)

تتمثل في التدخل في علاقة الحجة بالمتلقي، وذلك بصرفها على نحو يصبح المتلقي سجينا لها. ومما يرتبط بهذا الإجراء اللجوء المألوف إلى صور الأسلوب في البلاغة، إلى درجة التطابق بينهما لفترة تاريخية طويلة. فهل يمكن أن يصبح رأي ما حين يقدم بشكل جميل، حجة؟ وهنا أيضا نجد التراث البلاغي الذي حظي بهذا السؤال، قد أجاب عنه في الغالب بالإثبات. ولعل أحد تنويعات استخدام الأسلوب اليوم أن يمثله «الوضوح» في ملفوظ رأي ما.

حين يكون الرأي واضحا، يصبح على الفور مقنعا. وقد انتشرت هذه العبارة الإعلامية المبتذلة اليوم، إلى درجة أننا لم نعد نرى أبدا إلى أي درجة أصبح فيها الوضوح والشفافية مجرد حيلة للعرض تعمل على سجننا في الرسالة.

لقد عكف البلاغيون القدامى طويلا على المغالطات المنطقية التي تفرض على المتلقي قبول الرأي انطلاقا من برهان خاطئ. إن المشكل يطرح اليوم بهذا الشكل على نحو أقل. إنه لا يوجد إلا قليلا.

الشكل ٤. -حدود الحجاج



الحجاج: استدلال التواصل

إن السعي إلى تعريف جذري للحجاج بوصفه من جهة، أحد العناصر الأساس لعالم التواصل، وبوصفه من جهة ثانية ممارسة ذهنية، يصطدم من البداية بصعوبة ينبغي ألا نستهين بطبيعتها، ويمكنها أن تصاغ في الألفاظ الآتية: هل يوجد الحجاج ؟ هل هناك «في الحياة» فعل تواصلي يَتَكَوَّنُ من البرهان فقط، ويربط خطيبا ومتلقيا، ويسمح بنقل رأي الباثّ نحو المتلقي؟ هل يمكننا حقا أن نقتنع؛ أعني أن نغير في الغالب موقفنا الذاتي بواسطة الحجة؟ أو بتعبير آخر، ألا يوجد في العلاقات بين الناس، وَهْم الحجاج يصلح لإخفاء حقيقة أن التواصل استراتيجية، وإغراء، وسلطة؟

بلاغة يهيمن عليها الاستدلال

هذا ليس سؤالا مجردا؛ فهو يلاحق الباحثين في البلاغة منذ نشأة هذا الحقل. إن فكرا ذا نزعة اجتماعية أخذ المشعل اليوم مدعما رؤية للواقع يصبح فيها كل شيء علاقة خالصة بالسلطة وممارسات الإغراء أو استخدام تقنيات التطويع. لم تترك هذه الرؤية سوى حيز ضيق للحجاج، الذي يتحدد هنا بوصفه برهانا في موقف تواصلي تناظري حيث يكون كل واحد حرا في آرائه. وخشية تضليل القارئ، على الأقل في البداية، نؤكد هنا أن نوعا من الشك يحوم حول وجود فعل تواصلي مستقل يسمح بحجاج حر. ويتعزز هذا الشك بكون مواقف التواصل، كما قلنا ذلك في المقدمة، معقدة تتكون من طبقات غير قابلة للتجزيء، وأن كل ثراء النشاط الإنساني، هو حاضر فيها بشكل تناوبي.

إن هذا الشك حول وجود الفعل الحجاجي، هو ما سنسعى إلى إزاحته استنادا إلى فكرتين اثنتين. الفكرة الأولى ترتكز على هذا الثراء في المواقف المتبادلة بين البشر، والتي تتضمن البرهان أيضا، بوصفه أحد العناصر التي تبني التواصل. أما الفكرة الثانية، فهي أكثر جوهرية مما يبدو وتتعلق بالـ «مهيمنة»: يفترض فعل الحجاج بتضمنه لوحة

شاملة للاستجابات البشرية، هيمنة البرهنة، وبشكل مواز، نقصا في استدعاء العواطف والسلطة أو حتى الاستدلال. فهذه العناصر ليست إذن غائبة عن الفعل الحجاجي. ويمكننا أن نسعى إلى التفكير في الطريقة التي تتمكن فيها هذه العناصر الثانوية من أن تصبح في خدمة رسالة ما هو مهيمن: أي الإقناع بالبرهنة، من دون أن تعمل بالمقابل على شلها.

إن الفعل الحجاجي، في هذا الاتجاه، هو قبل كل شيء منح المتلقي دلائل جيدة للاعتقاد بما نقوله له.

الإقناع بالعقل

على الرغم من هاتين الفكرتين القويتين، يمكن الشك في أن يظل قائما هذا الحضور الممكن للعقل والبرهان في صميم فعل التواصل. ذلك أن قطاعا مهما من المؤسسات الهادفة إلى الإقناع والتي تم تفعيلها من المعاصرين في مجتمعنا اليوم على مستوى صارم خاضع للحساب إلى حد ما، تمتلك مهيمنات أخرى غير الحجاج. فالإشهار، والتواصل السياسي، يعدان مثالين جيدين لذلك. نادرا ما تنفصل دراسة الحجاج عن الاهتمام بالديموقراطية، والاهتمام بصفة عامة بكل ما يدعم الفكرة التي تتمثل في أن الجدال الحر بين الناس هو أمر ممكن ومنشود. يعني الحجاج تفعيل المساواة بين الناس بشكل ملموس، من وجهة النظر التي تعد من دون شك الأكثر جوهرية، أي وجهة نظر الكلام الذي يُجعَل على هذا النحو أكثر تماثلا وبالتالي أقل تراتبية[1]. يعني الحجاج أيضا، في سياق الدفاع عن رأي ما، الإسهام في بناء عالم يسود فيه العقل -عند الضرورة- على الأهواء أو الجهال دون إنكارهما مع ذلك.

إن الصعوبة الحقيقية هي إذن أن نتصور كونا عقليا ينبغي أن يكون متميزا عن البرهان العقلي. يستند رفض البلاغة، من قبل ديكارت (Descartes) ثم من قبل

(1) Breton, 2003.

التراث العلمي، إلى الفكرة التي تؤكد أن العقل لا يوجد إلا في العلم، وأن الباقي ما هو إلا عواطف وأهواء. فالمجال العمومي، بوصفه فضاء للتداول الديموقراطي كما حلم به فلاسفة الأنوار، هو المكان الذي ينمو فيه العلم داخل الفضاء اليومي للبشر. يواجه هذا المشروع الخصب والمجرد صعوبتين كبيرتين. تتمثل الأولى في أن العلوم الحقة لم يبق لها في النهاية أي شيء تقوله لا حول الإنسان في المجتمع، ولا حول البراهين التي تقود اختياراتنا اليومية. فهي تصطدم لحسن الحظ بتعقيدات الإنسان والحياة في المجتمع، لأن خطر شمولية العلم سيكون ضخما. إن مجتمعا عقلانيا يحتمل أن يصبح يوتوبيا مؤذية بالنسبة إلى الإنسانية.

أما الصعوبة الثانية فتتمثل في أن للبشر داخل المجتمع أسبابا صالحة أو غير صالحة للعمل، يلزم في ظلها مراعاة القيم الكبرى التي تتقاسمها المجموعات البشرية. بالطبع، فإن هذه البراهين تختلط بالأهواء، ومن المحتمل أن يكون هذا مقبولا. وحتى نعيد استخدام مفهوم المهيمنة في التواصل، فإن المهم أن نعرف أنه في لحظات معينة من الممكن والمنشود أن نوجد في موقف تواصلي تهيمن عليه الأهواء ويتضاءل فيه الاستدلال، وفي لحظات أخرى يحصل العكس. إن وثبات الأريحية التي يقدم عليها الإنسان على سبيل المثال تجعله يتغلب على العقل. وبالمقابل، تتيح ممارسة العقل تجنب عنف الخصومات حيثما ينشد تجنبها.

ما هو وضع هذه «البراهين» اليومية التي ليست براهين علمية، ولا أهواء بلاغية؟ ليس السؤال بسيطا والأجوبة عنه لن تكون كلية. إنها تتعلق من دون شك بالأفعال أكثر مما تتعلق بالعقائد، وبالبناء التجريبي أكثر مما تتعلق بالنموذج النظري. والشيء المؤكد: هو أن البرهان الحجاجي هو ما ليس برهانا علميا أو بلاغة عاطفية، إنه يقع بينهما. وفي الوقت نفسه يتميز عن التطويع أو العنف. إنه يتعارض هكذا مع كل أشكال القسر. ويظل الفضاء المحدد على هذا النحو واسعا، وسنتجه ربما حتى إلى توسيعه أكثر.

الفصل الثاني

أصناف الحجج

سنحاول في هذا الفصل أن نفهم كيف تعمل «الآلية الحجاجية». وكيف نقنع بشكل ملموس؟ لنسارع إلى القول إن لا أحد يملك مفتاح فهم تام لما سيظل سرا على الدوام كما هو محتمل. وكما يقول جورج جوسدورف (Georges Gusdorf)، من وجهة النظر هاته، إن «كل الميتافيزيقيات المقترحة طوال قرون، يبدو أنها انتهت إلى الفشل [...] فإنجازات العلم لا ينبغي أن تصنع أوهاما، لأنها منحصرة في مجالات ضيقة حيث تهيمن موضوعية لا إنسانية[...] يظل إذن معنى الكلام البشري من دون حل»[1].

وفي العمق، من الأفضل أن يكون الأمر هكذا: إذا حدث يوما ما أن اقترن الحجاج بالسيطرة الكاملة، فلن نكون بالفعل بشرا بالمعنى الحقيقي. فكثير من المؤلفين كانوا قد وصفوا، في هذا السياق، البلاغة ثم الحجاج بأنهما «فن». لهذه الصيغة الفضل في الإشارة إلى الجزء المتعلق بالإيجاد [أو الإبداع] الذي يحتوي عليه الفعل الحجاجي، والذي لا يخضع إذن إلى أي تحديد (ولكنه لا يعني، بعكس ذلك، غياب الإعداد أو الصنعة).

في هذه الوجهة، سنقترح تمييزا بين التحليل الذي يمكننا إنجازه عقب الحجاج الناجح، أو الحجاج المخفق، وبين إمكانية توقع حجاج ما. نستطيع في هذا المجال، كما

---

(١) ١٩٥٢، ص ٣٥.

يبدو، أن نحلل وأن نعرف ما جرى أفضل من أن نتوقع بيقين كيف ستسير الأمور. فالحجاج هو علم التحليل ولكنه فقط فن متنبئ. نحن إذن بإزاء سؤال: «كيف أقنعنا؟»، بقدر ما نحن بإزاء سؤال: «كيف سنقنع؟».

وكما تذكرنا كتب البلاغة القديمة، لم يبق سوى القول إن الحجاج يتم إعداده.

تعريف الحجة

لقد ارتكزت حتى الآن معظم الأعمال التي تهتم بالحجاج على الحجج بالمعنى الدقيق، حيث اقترحت تصنيفات إلى درجة التخمة. وتقوم وراء هذا فكرة أن الحجة مقنعة في ذاتها، من دون الإحالة إلى سياق الإنتاج أو التلقي. وتختزل النظرية في كونها مجرد تعليق على النص يبحث عن منطق كلي. وعلى العكس، دافع بعض المعاصرين الذين كان لهم إسهام قيم جدا في اللسانيات (نذكر هنا أوسوالد ديكرو)، بحرارة عن فكرة أن الحجاج كامن في اللغة.

هذا صحيح بطريقة ما، ما دام الإنسان يتجه بلغته إلى الآخرين. ولكن ينبغي أن نمنح هذا اللفظ معنى أكثر دقة، وأن نصطنع بالتأكيد حدودا للتمييز، من وجهة نظر التواصل ومقصديته، بين الأفعال الإنسانية التي تهدف إلى مشاطرة الرأي مع الآخر، وبين الأفعال التي لا غاية لها سوى الإخبار، أو الإغراء...أو تلك التي لا تقول شيئا.

ينبغي إذن الوقوف على تعريف الحجة، ولكننا سنمضي تبعا لخطة الكتاب إلى أبعد من ذلك، ونقبض على فعل الحجاج في دينامية التواصل. ماذا يعني بالضبط لفظ «الحجة»؟ سنميز هنا بين مستويين للتعريف عادة ما يلتبسان، وذلك استزادة في التوضيح:

-مستوى محتوى الحجة، أي الآراء في حد ذاتها.

-مستوى الشكل؛ (القالب)، والقالب الحجاجي الذي سيمنح شكله للأطروحة المقترحة.

غالبا ما تشير المؤلفات المخصصة لهذه القضايا بلفظ الحجة إلى ما لا يشكل سوى جزء منها: أي القالب الحجاجي. وقد حظيت هذه القوالب المختلفة بتسميات مثل «الحجة شبه المنطقية» أو «الحجة المستمدة من الشخص» ad hominem، أو أيضا «حجة المثال». يدل كل لفظ من هذه الألفاظ على شكل مخصوص يمكن، بحال من الأحوال، أن يصاغ فيه الرأي الذي ندافع عنه.

ولتوضيح هذا الأمر، إذا كنا ندعم فكرة تحرير استهلاك مخدر القَنَّابي بالاعتماد على بلد نجح فيه اتخاذ مثل هذا الإجراء، مثل هولاندا، فإننا نستعمل للدفاع عن هذه الأطروحة شكلا حجاجيا يتحدد بوصفه «حجة المثال». وكان من الممكن أيضا أن نستعمل «حجة السلطة» بالقول إن أحد أساتذة الطب الأكفاء الذي لا يشتبه في تحيزه، كان قد أعطى رأيه لصالح إباحة استهلاك المخدرات. في الحالتين معا، يتعلق الأمر بالأطروحة نفسها، (وجوب تحرير استهلاك مخدر القنابي)، ولكن الأشكال المختارة للتواصل مختلفة.

ويتجلى غموض لفظ «الحجة» أيضا في كونه يستعمل كذلك في اللغة اليومية بوصفه جماع الحجة ومحتواها المخصوص. إننا نهنئ رجل السياسة لأنه أوجد «حجة جيدة» ليعارض بها خصمه. في هذه الحالة، نتحدث في الوقت نفسه عن القالب والمحتوى. وحرصا منا على الوضوح سنستعمل غالبا، في هذا الفصل وفي الفصول الموالية، لفظ «الحجة» في معناه التقني الذي يصلح لتعيين قالب أو شكل حجاجي معطى، وليس مجموع الرسالة. ضرورة التصنيف: هل يجب أن نميز ونسمي كل حجة؟ صحيح أن السؤال يمكن أن يثار من زاوية نظر الذين استولى عليهم الهاجس التصنيفي الذي استولى على المؤلفين طوال تاريخ البلاغة. فبعض المؤلفين المعاصرين لم يتخلصوا من هذا الهاجس المفيد جدا عند التحليل الدقيق لنص، أو خطاب، أو كلام ذي بعد حجاجي.

نستطيع مع ذلك أن نعترض بقولنا إن مواقف التواصل التي تتوخى الإقناع، هي دائما معقدة، وأن الحقائق الإنسانية تتسم بأنها لا تتجزأ في الغالب. إن هذا البعد الذي

يجعل من الإنسان موضوعا يتعذر على الفهم من قبل العلوم الحقّة، على الأقل في هذا المستوى، يوجد في استعمال الحجج. ومهما تكن المجهودات التصنيفية في هذا المجال، فإننا نلاحظ أن العثور على «حجج نقية» نادر. تتضمَّن حجة المثال دائما نوعا من المقارنة؛ فهي في حد ذاتها استدعاء لسلطة واقعة نموذجية. وإمعانا في البحث، سنجد في هذه الحجة تماثلا، بل استدلالا استعاريا. باختصار، تتداخل الحجج، ونستطيع أحيانا أن نناقش إلى ما لا نهاية، في تحليل نص، حول حضور هذه الحجة أو تلك.

هل هذا يعني استحالة التحليل؟ بالتأكيد لا، لأنه يوجد دائما، أو على الأقل في الغالب، مهيمنات تجعلنا نقول إن الأمر يتعلق بالأحرى بحجة المثال، أو بالأحرى بحجة المقارنة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن التأويل يكمن بالضبط في أن ثمة عدة تحليلات ممكنة. وفي النهاية، سنلاحظ أنه إذا كانت هناك حجج قريبة بعضها من بعض، إلى درجة تداخلها أحيانا، فإنه توجد مع ذلك أصناف كبرى من الحجج التي تتميز بطبيعة الاستدلال الذي تقوم باستخدامه.

أصناف الحجج الكبرى الأربعة

سنقترح هنا تصنيفا بسيطا ومرنا يسهل مبدئيا استخدامه في التحليل. سنعتمد عمليا أربعة أصناف من الحجج: الحجج التي تستند إلى سلطة، والحجج التي تستدعي افتراضات مشتركة، أو ما تفترضه الجماعة، والحجج التي تقوم على عرض الواقع وتأطيره بطريقة معينة، وفي الأخير الحجج التي تستدعي تماثلا. يختزل هذا التصنيف (أي السلطة، والاشتراك، والتأطير، والتماثل) كل أنواع الحجج التي تصفها المؤلفات المخصصة لهذه القضايا[1]. وقبل الخوض المفصل في هذه الأصناف في الفصول القادمة، سنقف أولا على بعض الاختلافات الجوهرية بينها.

(١) في طبعة سابقة لهذا الكتاب، سبق لنا أن عرضنا بدورنا هذا التصنيف مع تغيير طفيف.

تغطي حجج السلطة كل الطرائق التي ترتكز على حشد سلطة إيجابية أو سلبية مقبولة من المتلقي، والتي تدافع عن الرأي الذي نقترحه عليه أو ننتقده. وتستدعي حجج الاشتراك المعتقدات أو القيم المشتركة مع المتلقي، والتي تحتوي مسبقا، بشكل من الأشكال، الرأي الذي يكون موضوعا لمشروع الاقتناع. وترتكز حجج التأطير على عرض الواقع من وجهة نظر معينة، بتفخيم بعض المظاهر مثلا، وتهوين أخرى لأجل استخلاص شرعية الرأي. ويستخدم صنف التماثل صورا كلاسية مُزَوَّدة بحمولة حجاجية كالمثال، والتماثل بأطرافه الأربعة، أو الاستعارة. وفي ما يأتي أربعة أمثلة تسمح بتوضيح هذا التصنيف.

مثال أ: السلطة

إن السيد لومير Lemaire، المحامي عن الحق المدني في محاكمة المجرمين المفترضين الذين اغتالوا الوالي إيرينياك Eriniac، والذي كان يسعى إلى إقناع الأضناء للاعتراف بالظروف الملموسة للجريمة، استعمل الحجة الآتية: «هنا حوكم مناضلو جبهة التحرير الوطني FLN، وقد دافعت عنهم، كما حوكم جنود منظمة الجيش السرية OAS المفقودون ، وقد دافعت عنهم. إنهم لم يتراجعوا قط عن مسؤولياتهم، بفرض احترام وتقدير من كانوا يحاكمونهم»[1]. فالسلطة المستدعاة هنا، هي سلطة مناضلين آخرين كانوا قد ارتكبوا هم أيضا أفعالا خطيرة مهما تكن أراؤهم السياسية، وهم الذين تحملوا مسؤولية فعلهم. إذا كانت هذه السلط معترفا بها كما هي بالنسبة إلى المناضلين الكورسيكيين الذين يوجدون في قفص الاتهام، فإنه بإمكانهم إذن أن يتبنوا الموقف المشرف نفسه، الذي «يفرض التقدير والاحترام».

مثال ب: الاشتراك

عندما أرادت الحكومة الفرنسية في شهر سبتمبر ٢٠٠٠، أن تتخذ لفترة قصيرة المدى

(1) Le Figaro, 5 et 6 Juillet 200.

إجراءات متناقضة مع سياستها الكلية، حتى يتسنى لها تحسين المعالجة السياسية لمشكل الزيادة الضخمة في ثمن النفط، اقترحت بياطريس جورّي Béatrice Gurrey، أنه لا يوجد في هذه الحالة أي تناقض «لكل شيء وقته المناسب، وقت لمعالجة الصعوبات الآنية، ووقت لاحترام برنامج؛ ووقت لإعداد الاستحقاقات السياسية الداخلية، وآخر للفعل في الإطار المحصور للتضامن الحكومي»(١). تستند الحجة هنا على صيغة نموذجية، تكاد تقترب من المثل الذي يقول: «لكل شيء وقته المناسب»، وأن فعلا يمكنه أن يكون إذن مختلفا عن الآخر، بسبب السلسلة الزمنية، من دون وجود أي تناقض. يتعلق الأمر هنا بافتراض مشترك قديم متحدر من الإنجيل وبصفة خاصة من الإيكليسياسط(٢) L'Ecclésiaste، وهو نص طويل مفعم بالحكمة، ومبني برمته على هذا التأرجح: هناك وقت للحياة، ووقت للموت. إلخ...

إن حجة الاشتراك غالبا ما تستند إلى القيم التي يشترك فيها كثير من الناس، مثال ذلك عندما صرح دومينيك دو فيلوبان Dominique de Villepin، بالإحالة طبعا إلى التدخل الأمريكي في العراق، أن «أسبقية الحق ليست اعترافا بالضعف، وليست عاملا من عوامل العجز. بل هي مطلب أخلاقي وسياسي، وشرط العدالة، والفعالية أيضا. وفي الواقع، العدالة هي الضامنة لأمن دائم»(٣).

مثال ج: التأطير

غالبا ما يتميز التأطير في الواقع بكونه يتعلق بالوصف الذي يلح على بعض المظاهر ويجانب أخرى. فمن «وجهة نظر» تسعى إلى الدفاع عن الدور الإيجابي الذي يقوم به الدين الإسلامي تجاه الشباب الفرنسي الذين اعتنقوا هذا الدين، اختارت دنيا بوزار Dounia Bouzar أن تضع في الواجهة مظهرا مخصوصا للموقف وذلك بتضخيمه:

---

(١) ٩ سبتمبر ٢٠٠٠ Le Monde

(٢) هو سفر النبي سليمان من بين أربعة وعشرين سفرا من أسفار الإنجيل العبراني. (المترجم).

(3) Le Monde, 27 Mars 2003.

«لقد ساعد الإسلام عددا كبيرا من الشباب على امتلاك الشعور بأنهم أصبحوا فرنسيين. منذ مدة طويلة كان هؤلاء الذين ترعرعوا في ثقافة مزدوجة يترددون في طلب الحصول على الجنسية الفرنسية معللين ذلك بالإخلاص لبلدهم الأصلي. لقد مثل الإسلام إذن بالنسبة إلى بعضهم فضاء للحرية يتيح ربط العالَمَيْن اللذين ينتمون إليهما. فالطابع اللاعنصري للإسلام، والمنفتح على الأوطان، سمح للمسلمين بالاندماج الكامل في فرنسا وتعلقهم بها مع الاحتفاظ بمكون عائلي وتاريخي مشترك: فلم يكن الأصل العرقي هو الذي يربط العلاقة مع الآباء، بل كان الدين الإسلامي»(١). لقد أجرت دنيا بوزار هنا «تأطيرا حجاجيا» لصالح رأيها. وبالطريقة نفسها حاول الوزير الأول الفرنسي، جان بيير رافّان Jean Pierre Raffain المتضايق من ردود الفعل التي أثيرت بسبب جملة قصيرة(٢) اعتبرها خصومه جارحة لهم، أن يعيد تأطير رأيه: «لم يكن يهدف بأي وسيلة من الوسائل مهاجمة أي كان... إن انتزاع هذه الجملة من سياقها يمكن أن يجعلها جارحة، في حين إنها لا تحمل دلالة سياسية في سياقها»(٣). إنه يقترح تفريقا في الواقع الحاصل سعيا إلى الإقناع بأنه لم يقصد إلى التجريح. إن التأطير وصف موجه يستعمل داخل مجال لا توجد فيه موضوعية ممكنة.

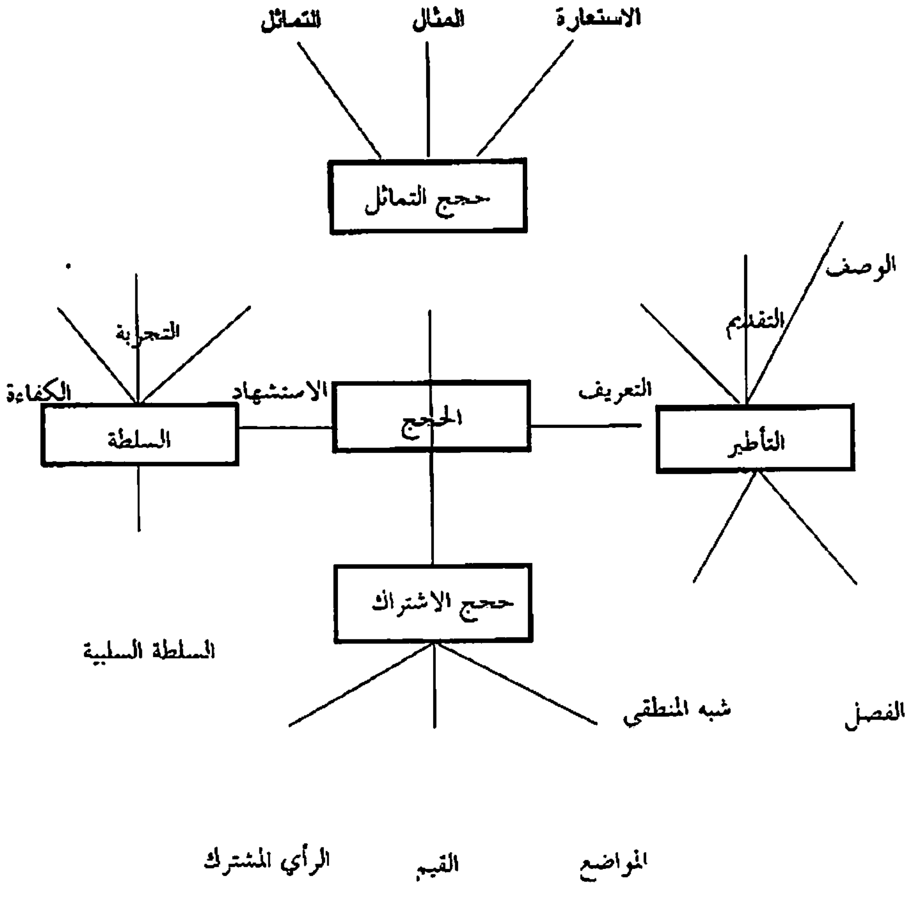
الأصناف الكبرى للحجج

تعرض هذه الخطاطة هنا الأصناف الكبرى للحجج وكذلك بعض الأصناف المفصلة التي سيتم عرضها في الفصول القادمة :

(1) Le Monde, 26 Avril 2003.

(٢) («فرنسا ليست في طريقها نحو الجنة إلا في مرحلة التجربة الانتقالية لأن الاشتراكيين مازلوا موجودين»)

(3) Monde, 2 Juillet 2003.



الاستعارة
المثال
التماثل
حجج التماثل
الوصف
التقديم
التجربة
الكفاءة
الاستشهاد
التعريف
السلطة
الحجج
التأطير
حجج الاشتراك
السلطة السلبية
شبه المنطقي
الفصل
المواضع
القيم
الرأي المشترك

مثال د: التماثل

استعمل فيرناندو سافاطير Fernando Savater، في دفاعه عن الفكرة التي نشر بموجبها مناضلو منظمة الإيطا I'ETA جوا من الرعب فرض على كثير من معارضيها العيش في الخفاء، تماثلا صادما: «في بلاد الباسك، وعلى امتداد رقعة أوروبا الديموقراطية، نمتلك في الوقت الحاضر عددا لا يحصى من سلمان رشدي Salman Rushdie. إنها سيطرة الخوف».(١) يسعى التماثل دائما إلى عنصر خارجي، أو موقف ليس له صلة بالحالة المعروضة، ولكننا نشعر أن صلة خفية قوية يمكن إقامتها. لقد تكثف التماثل هنا في استعارة حولت معارضي منظمة إيطا إلى «سلمان رشدي» (وهو الكاتب الذي نتذكر أنه كان قد ألف كتابا وصفه بعض الإسلاميين الأصوليين بالمروق عن الدين، لذلك أرغم على الحياة محروسا ومختفيا طوال سنوات عديدة).

وبالطريقة نفسها، استعمل النائب العام السابق لمدينة ميلانو: أنطونيو دي بييرطو Antonio di Pierto ذات يوم، تماثلا لكي ينتقد الموقف القضائي الذي يسمح لعدد من المنتخَبين الإيطاليين بممارسة مهمتهم النيابية على الرغم من نزاعاتهم مع العدالة. لقد صرح: «في هذا البلد، كل من كان مدانا بحكم قضائي، لا يملك الحق في أن يصبح رجلا من رجال المطافئ، ولكن لا يمنعه شيء من أن يصبح برلمانيا».(٢)

رصد الحجج

يحتوي النص الآتي على كل الحجج المشار إليها. يتعلق الأمر هنا بشخصين محاوَرَين(٣) يحاججان ضد الذين ينسخون عبر مواقع الأنترنت مثل نابسطر Napster،

(1) Le Monde, 17,18 Décembre 2000.

(2) Le Monde, 1 Juillet 2003.,

(٣) -الرئيس والرئيس المنفذ للفدرالية الوطنية لصناعة الإسطوانات، حاورتهما Véronique Mortaigne ، ٢٠ أكتوبر ٢٠٠٠.

الموسيقى المحمية مع ذلك بحقوق المؤلف. ويجب التنبيه إلى أن حجاجهما أثمر، لأن موقع نابسطر لم يعد له وجود غير شرعي (فقد خسر في البداية نصف زبنائه). ويظل الحجاج مع ذلك صالحا ضد كل المواقع التي استأنفت على عاتقها الإجراء نفسه[1].

نص حجاجي

جريدة لوموند: هل تشمل القرصنة نابسطر وجْنُوطِلاًّ Gnutella، برامج «المشاركة» حيث يستطيع مستعمل الأنترنت تبادل كنوز خزانته الإسطوانية مجانا مع جاره؟

جاي بيرمان: إن كل بث غير مرخص هو فعل قرصنة. في حالة جْنُوطِلاًّ وحالة نابسطر، لم يحترم أي قانون من قوانين حقوق النشر والتأليف. إنهم قراصنة أيضا، وينبغي ألا يكتسب الإجراء شرعيته الأخلاقية لمجرد أن التكنولوجيا تجعل من عملية ما ممكنة.

روبيربيري: فيما يخص نابسطر، فإن المبدعين لا دخل لهم في الطريقة التي تستهلك بها الموسيقى، ولا يقبضون أي تعويض مالي، وهو الأمر الذي لم نعهده قط في الموسيقى، حتي في عصر بيتهوفين. إن ملايين وملايين من مستعملي الأنترنت هم بصدد استعمال ملكيتنا الموسيقية استخفافا بالعمل الخلاَّق. إنها السرقة بعينها. لماذا نتحملها؟ إلا إذا قررت حفنة من الأفراد في القرن الحادى والعشرين، أن السرقة أسلوب في الحياة. في الوقت الحاضر، لن تذهبوا إلى أروقة فيرجين شانز إيليزي Virgin Champs Elysées قائلين: «الآن تغيرت الحياة، وتغير الاقتصاد، وأصبحت الموسيقى بالمجَّان». إنه العدم المطلق.

جريدة لوموند: ومع ذلك، فإن نابسطر لها شعبية كبيرة وواسعة عند الشباب الأمريكي. ألا يوجد جيل اسمه «جيل نابسطر؟»

(١) ولأجل تعرف سياق هذا الجدال انظر Breton ٢٠٠٠.

جاي بيرمان: الحقيقة أبسط. إذا رافقت شخصا إلى حانة، وقلت له: «تفضل بشرب هذا الويسكي، إنه بالمجان»، فإنه لن يتردد في شربه. والحال أنه لا يوجد شيء في الحياة بالمجان بصفة تامة. هل تعتقدون أن الذين استثمروا في نابسطر، يتصرفون بكرم وطيبة؟ لا، إنهم يريدون خلق علامتهم، والرفع من قيمة رأسمالهم. والحال أنه من السهل كسب المال عندما لا تنفق فلسا للحصول على السلعة التي تبيعها. هكذا، تصبح الموسيقى عندهم مبخسة، ومبتذلة. إن فنانين مثل ميطاليكا Métallica[1] أو الدكتور دري Dr Dre[2]، كانا قد عارضا هذا التوجه لتأسيس طريقة جديدة وزائفة للاستهلاك. ولقد غيرت MP٣ com، منذ إنشائها من جهة أخرى، تصورها لما هو «مجاني»، وعقدت اتفاقيات الترخيص مع صناع الإسطوانات ومنتجيها. نحن نريد طبعا تأسيس علاقة شرعية مع العالم الافتراضي -من دون اللجوء إلى المحاكم- ونحن لا نقيم دعاوى قضائية ضد الخواص ولكن ضد الخوادم الإلكترونية[3].

لوموند: هل القرصنة في الأنترنت أكثر خطورة من القرصنة الكلاسية؟

جاي بيرمان: اليوم تواصل الحصة الكبرى لتجارة الموسيقى عملها بواسطة منتوجات مادية (الإسطوانات، والأشرطة الموسيقية، والفيديوهات). إن طاقة الاستهلاك العالمية أعلى مرتين مما يمكن أن يستوعبه السوق. فالقراصنة والمساهمون في الجريمة المنظمة يروجون ما يقارب خمس ملايين إسطوانة كل سنة... تكمن في القرصنة عبر الأنترنت خطورة كبيرة: فالملايين من مستعملي الأنترنت، يمكن أن يؤثر فيهم فرد واحد. وحسب تقديرنا، فإن خمسة وعشرين مليونا من الملفات المحظورة تروج في الأنترنت.

تحليل نص حجاجي

إن هذا النص هو بكل وضوح نص حجاجي، يدافع فيه صاحباه عن رأي موجه إلى

---

(١)-من أشهر فرق موسيقى الهيفي ميتال heavy metal بالولايات المتحدة الأمريكية.(المترجم)

(٢)- منتج موسيقي ومن أشهر مغني الرَّاب بالولايات المتحدة الأمريكية.(المترجم)

(3) Des serveurs..

مجموعة من المتلقين المختلفين. وذلك للإقناع بأن أنشطة مواقع الأنترنت، مثل نابسطر، غير شرعية ومدانة أخلاقيا. وللبحث عن الحجج المختلفة، يمكننا أن نطبق، على هذا النص، الشبكة المقترحة أعلاه.

سنضبط، على سبيل المثال، حجتين من حجج السلطة، تحيل الأولى إلى بيتهوفن الذي كان هو أيضا يتلقى تعويضات مالية مقابل الموسيقى التي أبدعها. أما حجة السلطة الثانية التي تتوجه هذه المرة إلى طائفة أخرى من المتلقين، فترتكز على تأكيد العداء لهذا النوع من البث الموسيقي من قبل موسيقيين فنانين محبوبين جدا من الشباب مثل ميطالِّكا والدكتور دري.

نحن في خضم اشتغال صنف الحجج التي تستدعي سلطة معترفا بها من قبل المتلقي، ومن قبل من يدافع بالضبط عن الرأي موضوع التواصل. ومن الملاحظ أن صاحبيْ الحجة يتوجهان نحو مُتَلقِّيَيْنِ يمتلكان ثقافة موسيقية مختلفة. إن رأيا واحدا يمكنه بكل تأكيد أن ينتشر في سلسلة من الحجج، ومن ضمنها الحجج التي تنتمي إلى الصنف نفسه.

وسنجد كذلك تماثلات ملحوظة متعددة في هذا النص لأنها تستدعي عنصرا خارجا عن عالم الموسيقى، كالتمثيل بالحانة على سبيل المثال. سيتفق المتلقون على أن مجانيَّة المشروبات الكحولية في الحانات، ومن ثمَّ مجانية الإسطوانات في المتاجر الكبرى، هو موقف عبثي. هذا الاتفاق المسبق تم نقله إلى قضية مجانية الموسيقى في مواقع الأنترنت. ومثلما نقبل في الحالة الأولى أن المجانية عبثية، نقبل أنها كذلك في الحالة الثانية.

إن المقارنة بين بث الموسيقى غير المسموح به وبين فعل «القرصنة»، يمكن أن نعده تماثلا مع فعل القراصنة الذين ينهبون (وفي بعض الأماكن ما زالوا ينهبون) مراكب التجارة في البحر. لكن هذا التماثل ليس في الحقيقة جديدا، إنه متداول في اللغة اليومية، بوصفه مرادفا لفعل غير شرعي ومدان. إن الأمر إذن يتعلق بالأحرى هنا بحجة التأطير التي تنعت من منظور معين فعل البث المجاني للموسيقى.

وثمة تأطير آخر، يتمثل في هذا الفصل المقترح علينا بين الإمكانية التقنية، وبين طابعها الشرعي أخلاقيا. إن التأطير ملائم في موقف عام حيث يكون لنا ميل للاعتقاد، خصوصا مع التكنولوجيات الجديدة، أن كل ما هو صالح تقنيا، يجب أن يعد بالفعل وكأنه شرعي.

وثمة تأطير بواسطة الوصل هذه المرة، ويتمثل في الملفوظ الذي يصل، هنا داخل الجملة الواحدة، «القراصنة والجريمة المنظمة». ومن منظور معيَّن، فإن كلا من هذين العالمين يعملان على الاحتيال على حقوق التأليف والنشر ونهب ممتلكات الآخرين. يسمح الوصل، الذي يستند هنا إلى الرفض العام الذي تثيره الجريمة المنظمة، بنقل هذه الموافقة المسبقة إلى قراصنة الأنترنت، وإلا فإننا سنجنح إلى اعتبار مستخدمي موسيقى الأنترنت أشخاصا يمارسون ببساطة حرية التواصل في عالم افتراضي.

من جهة أخرى يذكرنا النص ، في تأطير آخر، أن المواقع الإلكترونية، مثل نابسطر، لا تعمل باسم هذه الحرية التي يطالب بها مستعملو الأنترنت، ولكنها تعمل بحكم الفوائد المالية التي لا ينبغي أن تغيب عن البال. إن هذا الوجه الآخر كفيل بإبعاد مستعملي الأنترنت العاشقين للحرية من هذا الموقع الإلكتروني بإظهاره لهم أنه لا يشاطرهم قيمهم.

سنلاحظ في سياق التحليل -غير الشامل- لهذا النص أنه يتكون على نحو واسع من حجج التأطير التي تُمَثِّلُ بصفة عامة -إحصائيا-، الصنف الأكثر أهمية داخل اللغة. فحجج التماثل وحجج السلطة أكثر ندرة، وهذا لا يعني أنها أقل لفتا للنظر إذا ما استعملت بدراية. وفضلا عن ذلك، لا نجد هنا حجج الاشتراك بالمعنى الحقيقي الدقيق.

حركة الحجج

مهما تبلغ دقة تصنيف ما، فإنه لا يمكن أن يشتمل على جميع أنواع الحجج خاصة في

مجال اللغة التي تتسم جوهريا بحركة دائمة. فبعض الحجج تقع على الحدود الفاصلة بين صنفين. ما هو نوع الحجة في قول فيليب بوشي Philippe Boucher، مدير اللجنة الوطنية لمحاربة التدخين، عندما اقترح في انتقاده لصناعة التبغ، أن ننظر إليها بوصفها: «الصناعة الوحيدة التي لا تَسْحَبُ من السوق منتوجا بعدما يتبين لها أنه مضر وخطير.»[١]؟ هل يتعلق الأمر بتأطير يقوم دائما على إبراز بعض المظاهر الأكثر تحديدا، والتي يعمل إبرازها بالطبع على تدعيم الأطروحة التي نريد الدفاع عنها، أم يتعلق الأمر بتماثل مع صناعات أخرى؟ إن الحجة هنا وسطية، ولن نجهد أنفسنا قسريا لإدخالها عنوة في هذا الصنف أو ذاك.

إن عديدا من حالات التماثل أصبحت جزءا من اللغة اليومية وشكلت مادة لحجج الاشتراك، مع احتفاظها شكليا بصيغة التماثل. هكذا يتطلب الوضع الصعب[٢] الاستمرار دون توقف، مثل ما أكد روبير هوي Robert Hue: «يجب على الحزب الشيوعي أن ينخرط أيضا وبسرعة في اتجاه الشيوعية الجديدة. أعتقد أنها ضرورة. هذا ليس وقت التراجع عن التحول الذي التزمنا به»[٣]، أو كما يقول إدوارد باللادور Edouard Balladur متحدثا عن الوحدة المفترضة لليمين داخل الحزب الواحد.[٤] إنه البيض الذي لا يجب، وهو أمر معروف، «أن نضعه في سلة واحدة» خشية أن يتكسر كله. على هذا النحو توجد بعض الحجج في حركة مستمرة، فهي لا تستدعي الوسائل نفسها. إنها تقيم إقناعها وفق العصر والظروف.

تحريف الحجة

إن قسما من تقنيات التطويع، تلك التي أطلقنا عليها في كتاب آخر[٥] ، «التطويع

(١)-مذكور من قبل Laurence Folléa، Le Monde ١٦ مارس ١٩٩٦.
(٢) - يشير إلى حالة من يعبر النهر معتمدا على مواضع غير عميقة تطأها الأقدام. (المترجم)
(3) Le Figaro, 21 Mars 2001.
(4) Le Figaro, 16 Mars 1998.
(5) Breton, 2000,

المعرفي»، يرتكز على تحريف الحجة. يعتقد المتلقي أنه بصدد الحجة التي لا تقيد حريته، بينما هو في الواقع يواجه ملفوظا تطويعيا ليس له من الحجة إلا مظهرها.

إن المزج هو صورة مركزية للتطويع المعرفي. فهو يشكل، حسب الحالات، تحريفا للتماثل أو للتأطير، وخاصة التأطير بواسطة الوصل[1] وأحيانا لحجة السلطة. ولنكتف بالاستشهاد بهذا المثال، حيث إن عديدا من صور المزج تلتمس حاملا[2] يثير الاشمئزاز من النازية سعيا إلى الانتقاص من رأي ما. إن هذا النوع من المزج يوجد داخل سياقات متنوعة جدا.

هكذا، فإن ميك مور Mike Moore، المدير العام للمنظمة العالمية للتجارة، وصل (حجة التأطير) بين « اليسار المتطرف واليمين المتطرف (اللَّذَيْنِ) توَحَّدا في الشارع ضد العولمة. وكانا قد قاما بهذا الفعل للمرة الأخيرة في الثلاثينات من القرن العشرين ضد الديموقراطية المندحرة،»[3] ومن جانب آخر في سياق الموضوع نفسه، صرحت لوري والاش Lori Wallach، رئيسة جمعية المرصد العالمي للتجارة Global Trade Watch[4] التي تناهض العولمة، بما يأتي: «في الماضي، كانت كل طائفة تستطيع أن تمتلك سياسة خاصة بها. أما اليوم، فهي هيمنة التجارة فوق كل شيء Uber alles»[5].

يمكِّن التماثل من نقل سياق الحامل إلى سياق الموضوع على الرغم من غياب أي علاقة تشابه بينهما. هكذا، وفي خضم أزمة كوسوفو في فصل الربيع من سنة ١٩٩٩، امتلأ الجدال الفكري الفرنسي بهذا النوع من المزج الذي لم يشرف أولئك الذين ساروا

---

(١) انظر الفصل السابع.

(٢) يشير لفظ الحامل إلى «المستعار منه» ولفظ الموضوع إلى «المستعار له». (المترجم).

(3) Le monde, 26 Mai 2001.

(٤) – منظمة أمريكية تعنى بالدفاع عن حقوق المستهلك. (المترجم)

(٥) مذكور من قبل Le Monde, Partice de Beer، ٣٠ يونيو ٢٠٠٠. تعني العبارة الألمانية uber alles: «فوق كل شيء»، وهي جزء من النشيد الوطني الألماني الذي يذكر بتفوق ألمانيا.

على هواهم فيه. وحين تجرأ بيرنار هنري ليفي Bernard-Henri Lévy الشنيع وغير المسؤول بشكل خاص، على كتابة : «ليس ريجيس دوبراي Régis Debray هو دريو Drieu، ولا بلغراد هي برلين. ولكن في النهاية...وبطريقة من الطرق، نحن هنا. إن ما كنا نعيشه في الكتب هو، كما يبدو، ما نعيشه في الحياة...انتحار مباشر لأحد المثقفين. وأسفاه. وداعًا ريجيس»[1].

إن التماثل مع هذه المرحلة كان له نجاح كبير، كما يشهد على ذلك مارك بلونديل Marc Blondel الذي يقارن الكار CARE (اتفاقية المساعدة للعودة إلى العمل) بالستو STO (مصلحة العمل الإجباري) التي أحدثها فيشي Vichy.

إن الإحالة استعملت أيضا، بشكل واسع فيما وراء الأطلنطي، عندما وُصِفت وكالة المحافظة على البيئة من قبل نائب بيرلماني من ولاية تكساس بـ «جيسطابو الحكومة».[2]

تمثل النازية، في ثقافة ما بعد الحرب، صورة الشر المطلق. وليس غريبا من جهة أن يسعى بعضهم إلى تفعيل اتفاق مسبق من هذا الجانب، ويسعى من جهة أخرى إلى بناء حجة على هذا الأساس. في غالب الأحيان، لا يوجد شيء يسَوِّغُ الوصل المقترح، بينما يوجد الحامل بعيدا جدا عن الموقف. ولكن الشعور الذي يثيره بصفة عفوية، يتيح، على نحو ما، اختصار هذه المسافة الطويلة جدا، وبناء جسر اصطناعي بين الحامل والموضوع. يمكن أن يبدو هذا الإجراء مبالغا فيه وقليل الفاعلية، غير أن أولئك الذين سبق أن نعتوا بـ «النازيين»، يستطيعون أن يشهدوا أن الموقف ليس بالبساطة التي قد يظهر بها. والحق أن الإجراء تطويعي تقنيا ومقيت أخلاقيا.

---

(1) Le monde, 14 Mai 1999.

(٢) Gestapo du gouvernement، (مذكور من قبل Dominique Durand، Le Canard enchainé، 25 أبريل ٢٠٠١). حيث لجأ إلى استخدام التماثل مع الكاتب العميل دريو لا روشيل Drieu La Rochelle

الفصل الثالث

دور الاتفاق المسبق

لا وجود لحجاج من دون اتفاق المتلقي. يجب بادئ ذي بدء أن يقبل الجدل ويذعن للإقناع، وهذا ليس مسلَّماً به أبدا. يجب أحيانا أن نُقنع الآخر بمشروعية السعي إلى إقناعه ...عندما نكون في سياق يتسم عادة باستعمال تقنيات التطويع (في السياسة، أو في البيع على سبيل المثال) ليس نادرا أن يحمي المتلقون أنفسهم، غريزيا أو إراديا، من كل محاولة للإقناع، وخاصّة عندما تكون حجاجية على نحو مشروع[1].

ويجب أن نضيف إلى اتفاق المتلقي العام، نوعا آخر من الاتفاق، يسمَّى هنا «الاتفاق المسبق» الذي يتعلق بالتقنية الحجاجية في حد ذاتها. فالملاحظ أن الفعل الحجاجي لا يتمثل في تشكيل الرأي وصياغته في قالب حجاجي فقط، ولكنه يتمثل بصفة خاصة، بدعم هذا القالب الحجاجي بعنصر مقبول سابقا من المتلقي. وبصفة ملموسة، فإن البحث عن اتفاق مسبق يتحقق بواسطة تحديد «نقطة ارتكاز» انطلاقا من موضوع مقبول من المتلقي سلفا.

والملاحظ أن «المتلقي الكوني» نادر؛ فنحن نحاول دائما إقناع متلق محدد، سواء أتعلق

---

(1) Breton, 2000.

الأمر بشخص واحد أم بمجموعة من الأشخاص. فالاتفاق المسبق لا يخص إذن سوى شخص واحد أو مجموعة من الأشخاص.

الاتفاق المسبق في خضم الحجاج

تسمح إعادة الأمثلة المذكورة في الفصل السابق بالنظر إلى كيفية اشتغال البحث عن نقطة ارتكاز يقوم عليها الحجاج. في المثال (أ)، نرى جيدا كيف استدعى المحامي في المحكمة شخصيات مناضلة. صحيح أنها معنوية، لكنها قابلة لأن تشكِّلَ سلطات في عيون المتهمين. تمثل هذه السلطات نقطة ارتكاز الحجاج ، ما دام ما تعتقده هذه السلطات وما تقوم به، هو بالضبط الرأي الذي يسعى المحامي إلى الدفاع عنه.

في المثال (ب)، تتمثل نقطة الارتكاز في قبول الاعتقاد بأنه يوجد بالفعل «زمن لكل شيء». ومن لا يشاطر هذا الاعتقاد لا حَظَّ له في الاقتناع بمِثل هذه الحجة. إن هذا الاتفاق المسبق لا يخص سوى جماعة معينة، وهي هنا جماعة ثقافية متأثرة بنص الإنجيل (إلا إذا عمدت ثقافات أخرى إلى تناول هذا الموضوع وهو ما يمنحه كونية معينة). وعلى نفس المنوال، يستدعي دومينيك دو فيلوبان، لأجل الإقناع، قيما يفترض أن المتلقي الذي يتوجه إليه يشاطرها، وهي قيم مجردة كالحق والعدالة، وقيما محسوسة يتأثر بها العالم الأنجلو ساكسوني كالنجاعة والأمن. إذا منحنا الاتفاق المسبق إلى هذه القيم التي تصلح نقطة ارتكاز للحجاج، نستطيع عندئذ أن نشاطر الرأي الذي اقترن بها.

في حالة حجة التأطير كما في (المثال ج)، فإن الاتفاق المسبق، بوصفه نقطة انطلاق الحجة، يتمثل في التذكير بعدد معين من الوقائع المفترض في المتلقي قبولها بوصفها تُشكِّل الظاهرة الموصوفة على نحو جيد. فالتأطير هو «وصف موجه»، يختلف عن «الوصف الإخباري» الملتزم بالموضوعية. هكذا تلح دونيا بوزار على الطابع « اللاعرقي والمتفتح» للدين الإسلامي الذي يسمح إذن لمعتنقيه أن يتخلوا عن هويتهم الوطنية الأصلية

والارتباط بأمة المسلمين، أي بآبائهم. على هذا النحو أصبحت هذه المزية الخاصة بالإسلام مفخَّمة و«مزيدة». يتعلق الاتفاق المسبق، الذي نبحث عنه تحديدا، بقبول هذا الطابع «اللاعنصري والمتفتح» الذي يصلح، على هذا النحو، نقطة ارتكاز للحجاج ويحمل المتلقي في المحصلة النهائية إلى قبول الرأي الذي يستطيع الإسلام بواسطته أن يقوم بدور إيجابي في الإدماج.

فالتأطير غالبا ما يكون اقتراحا لإعادة تأطير مجموعة من الوقائع المقبولة من قبل المتلقي منذ البداية. إن عليه أن يقبل كذلك حركة إعادة التأطير المقترحة عليه، والتي لا يجب أن تكون بصفة عامة مفاجئة جدا، بل بالأحرى عليها أن تكون متدرجة. وزيادة على ذلك ينبغي في المثال الثاني (ج) قبول أن كلام جان-بيير رافاران في السياق الذي تكلم فيه، لا يمتلك «معنى سياسيا».

فالتماثل (في المثال ج) يربط دائما موضوعا [مستعار له]، وهو (الرأي الذي ندافع عنه)، بحامل [مستعار منه] (العنصر الخارجي الذي يصلح لبناء الحجة). فالاتفاق المسبق على الحامل يجب بالضرورة أن يكون حاصلا حتى لا يصير التماثل حجة غير مؤثرة. يتفق كثير من الناس على أن المصير الذي لحق بسلمان رشدي ظالم ومرعب. فالتماثل يرتكز على نقل سخط المتلقي على مصير الكاتب إلى وضعية الذين يعيشون مختفين بسبب تهديدات منظمة الإيطَا. ليس هناك بالتأكيد مشابهة تامة بين الوضعيتين، ولكن لا يتعلق الأمر بالضبط بتشبيه. إن الاتفاق المسبق يتضاعف باتفاق ثان يرتكز على شرعية إقامة علاقة بين الموضوع والحامل، وبين الرأي المقترح والحالة المماثلة. فالمتلقي يمكنه الحكم على أن مصير سلمان رشدي لا يُحتمل، دون أن يقبل مع ذلك «المشابهة» بوضعية بلاد الباسك الإسبانية. لقد استخدم أنطونيو دي بييرطو Antonio Di Pierto نقطة ارتكاز لا تقبل الجدال بصفة خاصة (لا يمكن لشخص صدر في حقه حكم قضائي أن يصبح من رجال المطافئ). تكتسب حجته قوة زائدة.

الاستراتيجية الحجاجية

إن البحث عن الاتفاق المسبق عنصر مهم لتحضير الحجاج ولاستخدامه. فالتحليل الموجز للنص الآتي، يوضح بطريقة تمثيلية هذا المظهر الأساس للحجاج.

جوط ضد شيندلر Goeth versus schindler

١-آمون جوط Amon goeth: (يقوم من مكانه بصعوبة كبيرة وهو في حالة سكر، ثم يعود للجلوس)، كلما أمعن فيك النظر...ألاحظك...أنت لا تصل إلى درجة السكر أبدا...آه، إنه تحكم حقيقي في الذات...التحكم والسلطة...فهذه هي السلطة...

٢-أوسكار شيندلر Oskar schlinder: ألهذا السبب يهابوننا؟

٣-آمون جوط: نعم، لدينا هذه السلطة السيئة للقتل...ولهذا السبب يهابوننا...

٤-أوسكار شيندلر: إنهم يهابوننا لأننا نمتلك سلطة القتل بطريقة عشوائية.... يرتكب رجل جريمة...لم يكن ذلك مطلوبا...إننا نجعله يقتل ثم نشعر بعد ذلك بالارتياح...أو نقتله نحن بأنفسنا ثم نشعر كذلك بأننا أفضل...إنها ليست السلطة مع ذلك...بل هي العدالة...إنها تختلف عن السلطة...فالسلطة تكون عندما نتوفر على جميع الأسباب التي تجعلنا نقتل ولا نقوم بذلك.

٥-آمون جوط: أنت تعتقد أنها السلطة؟

٦- أوسكار شيندلر (يميل نحو جوط ثم يركز نظراته في عينيه): إنها السلطة التي كان يمتلكها الأباطرة...فالرجل الذي اقترف سرقة وسيق إلى الإمبراطور...يرتمي على قدمي الحاكم للتضرع إليه طلبا للرحمة...يعرف أنه ميت لا محالة...فيعفو الإمبراطور عن هذا الرجل...عن هذه الحثالة البشرية، ثم يطلق سراحه...

٧-آمون جوط: أعتقد أنك سكران...

٨-أوسكار شيندلر (أثناء الإجابة توقف عن الانحناء على جوط ثم فتح ذراعيه باسطا يديه): إنها السلطة يا آمون...هذه هي السلطة...يا آمون الطيب...

٩-آمون جوط: إنه يسامحك...(وانفجر ضاحكا، بعد أن قام بإشارة يبارك فيها شيندلر).

إن قصة الألماني أوسكار شيندلر الحقيقية، أتاحت مؤخرا لستيفن سبيلبرج Steven Spielberg إخراج فيلم (١٩٣٣). لقد تم تقديم شيندلر في هذا الفيلم بسمات رجل أنقذ، بنزعته الإنسانية من موت محقق أثناء الحرب، ما يعادل ألفي شخص حكم عليهم بالإعدام لأنهم كانوا يهودا. وبحكم اختياراته، وُضِع شيندلر في سلسلة من المواقف غير المريحة بالنسبة إليه: إنه يجب في نظر السلطات أن يبقى العنصر المؤثر للحزب النازي الذي هو فعلا كذلك، وفي الوقت نفسه يجب أن يقنع السلطات نفسها بالحفاظ على حياة عدد من الأفراد، في سياق لم تعد للحياة الإنسانية أية قيمة.

إن أحد مشاهد هذا الفيلم السينمائي المزود بصفة خاصة بمواقف حجاجية، يستحق أن يخضع للتحليل. فشيندلر الذي يتعاطف مع رئيس معسكر العمل، ال س.س. آمون جوط Le S.S (١)، يحاول إقناعه بالتوقف عن القتل العشوائي للسجناء المَغَرَّبين (خصوصا ببندقية ذات منظار من أعلى سطح فيلّته. إنه لا يستطيع، طبعا، أن يستعمل حججا «إنسية»؛ فهي لا حَظَّ لها في إقناع هذا الـ(س. س) العنيف، ولكنها، زيادة على ذلك، تُعرِّض شيندلر نفسه للخطر الذي كشف، على هذا النحو، عن طبيعته الحقيقية. سيستند شيندلر إذن على اتفاق مسبق مقبول من الـ(س. س) لإقناعه بمشاطرته رأيه: أي لا يجب قتل السجناء المُغرَّبين بطريقة عشوائية.

إن المشهد، الذي يستغرق دقيقتين وإحدى وعشرين ثانية، يجري ليلا فوق سطح الفيلا التي تشرف على المعسكر. فآمون جوط سكران بعد سهرة قضاها في الاحتفال. يقابله شيندلر الذي يظهر متحكما جدا في نفسه. وفي خلفية المشهد، يظهر المعسكر بمَرَاقبِهِ، ومخيماته وأضوائه التي تنير المجموع.

(١) وحدات ال S.S: منظمة تابعة للحزب النازي الألماني، كانت مكلفة بمهمة حماية أدولف هتلر.(المترجم)

يستغل شيندلر طبعا موقفا نفسيا خاصا، يتمثل من جهة في سكر جوط ، ومن جهة أخرى في الإعجاب الذي يشهد له به جوط في ما يتعلق بـ «تحكمه في ذاته». يستغل شيندلر يد المساعدة التي مدها له جوط دون إرادته لأجل إثارة نقاش حول طبيعة السلطة، الأمر الذي سمح له بأن يقترح عليه تعريفا لها.

فالاتفاق المسبق الذي يستند إليه شيندلر، يتمثل هنا بصفة واضحة في البحث عن السلطة «الحقيقية» التي يظهر أن جوط قد ارتمى فيها بشغف. ولكن، ما السلطة؟ سيعمل شيندلر في هذه الحالة على إقناع جوط أن السلطة الحقيقية تتمثل في أنه يجب ألاَّ نقتل الآخرين، -وخاصة- حتى عندما نعتقد أننا نمتلك الأسباب المعقولة للقيام بذلك.

يستعمل شيندلر بدءا (٤)[1] حجة التأطير بواسطة الفصل: فما يمارسه السادة (استعمال ضمير «نحن») هو العدالة من جهة، والسلطة من جهة أخرى. فالعدالة تتمثل في قتل الذين «يرتكبون جرائم»، أما السلطة فتتمثل في أننا «نتوفر على جميع الأسباب التي تجعلنا نقتل... ولا نقوم بذلك».

وحده التعريف الأول من التعريفين مقبول من جوط، عند الاقتضاء. فالتعريف هنا يصلح لتخليص رئيس المعسكر من الجرائم التي يرتكبها في حق السجناء المغتربين الذين ارتكبوا أخطاء، أو حتى عندما لا يتعلق الأمر بـ «جرائم». ولنتذكر أن هدف شيندلر لا يكمن في أن يتوقف جوط عن قتل السجناء ولكن في توقفه عن قتل السجناء من دون سبب وبطريقة عشوائية.

يسمح هذا التأطير بالعمل على إيجاد مقولة جديدة هي: «السلطة الحقيقية». في هذه المرحلة (٥) بالطبع لم يكن جوط مقتنعا بعد، على الرغم من أنه قبل، فيما يبدو، المرحلة الأولى للاستدلال الذي وجه إليه.

(١) تشير الأرقام بين قوسين، من أربعة إلى تسعة، إلى الحوار أعلاه بين آمون جوط وأوسكار شيندلر. (المترجم)

سيستعمل شيندلر (٦) حجة التماثل هذه المرة، أي قصة الإمبراطور الذي يعفو عن الشخص الدنيء؛ إنه مذنب وفي الوقت نفسه يوجد تحت رحمة الإمبراطور. لقد منح شيندلر الاتفاق المسبق حضورا ملموسا تمثل في الإمبراطور (الذي يحتمل أن يتقمص جوط شخصيته)، وسلطته الواقعية التي تقارن بسلطة رئيس المعسكر. يستعمل شيندلر في الجواب (٦) النبرة الودية والقرب الجسدي لكي يتدخل في العلاقة التي تنسج في هذه اللحظة المحددة التي بدأ فيها جوط يحصل لديه الاقتناع.

يذعن (س. س) لما قال به شيندلر شريطة أن يكون سكران (وهو ما يعرف أنه ليس كذلك). يُكَمِّلُ شيندلر الموقف بالارتكاز (٨) على حجة التعريف السابقة وإلصاقها مباشرة بجوط: «آمون الطيب...» والقيام بإشارة شبه إنجيلية: الذراع مبسوطة، واليدان مبسوطتان.

ويرسل الرئيس (س. س) حينئذ (٩) رسالة متناقضة؛ فهو من جهة قام بإشارة العفو التي تعادل قبول ومشاطرة رأي شيندلر، ومن جهة أخرى انفجر في ضحك تهكمي.

لقد أدرك حجاج شيندلر مراده. غير أن رأيه كان يجب مع ذلك، حتى يصبح مقبولا، أن يلجأ إلى تمجيد جبروت الإمبراطور الذي يمتلك سلطة تخول له طبعا أن يستغني عن ممارستها، ولن يكون أبدا عظيما بهذه الدرجة إلا في لحظة هذا الاستغناء. لقد اعترف إذن، بطريقة من الطرق، بشرعية جبروت رئيس المعسكر وبسلطته المطلقة. ولكن هل كان له الاختيار؟ ألم يكن هذا الجبروت الحقيقة الفظيعة؟ لقد بين شيندلر، منطلقا من اتفاق مسبق حول البحث عن السلطة، أنها تعني أيضا إمكانية التخلي عنها...

إن استدعاء قيمة، كما لاحظ بيير أوليرون، يسهم في تعزيزها. لا شك أن شيندلر لم يكن يتمنى، في مثل هذا السياق، تعزيز قيمة الجبروت. ومع ذلك حصل على نتيجة (قصيرة المدى ما دام آمون جوط سيعود سريعا إلى ممارساته السابقة بعد أن تم مع ذلك توفير حياة بشرية بفضل هذا الحجاج الذي استند إليه شيندلر).

الفصل الرابع

حجج السلطة

إن شكل حجج السلطة ثابت. فالرأي الذي نقترحه على المتلقي مقبول لديه لأن سلطة تدعمه، وهو يمتلك هذه السلطة نفسها كذلك. ومن هنا قبوله لما تقترحه عليه السلطة بوصفه محتملا. وكما رأينا سابقا، عندما ذكر رئيس الفيدرالية الدولية للصناعة الفونوغرافية جاي برمان Jay Berman منتقدا موقع الأنترنت نابستر[١] الذي يتيح إمكانية الولوج المجاني لأغلب الإسطوانات التجارية، ذكر أن «فنانين مثل ميطاليكا أو الدكتور دري، كانا قد عارضا هذا التوجه لتأسيس طريقة جديدة للاستهلاك»[٢]، فإنه استدعى بذلك سلطة لا نزاع حولها بالنسبة إلى الشباب الذين يحاول إقناعهم.

وعلى المنوال نفسه، فإن القول، كما نجد في هذا الإشهار التلفزي الكندي، إن «أورال B هو العلامة التي يستعملها أطباء الأسنان أنفسهم»، يفيد استدعاء سلطة شرعية بالنسبة إلى المتلقي المعني بصحة أسنانه. في الحالتين معا، ينصب الاتفاق المسبق على السلطة المقبولة مسبقا من المتلقي.

(١) انظر الفصل السابق.

(2) Le monde, 20 Octobre 2000.

إن حجة دومينيك دو فيلوبان، الأكثر ثقافة، والتي تنص على «أن الاعتدال منذ القدم وحده الذي يجعل القدرة مقبولة، كما أكد [المؤرخ اليوناني] ثوسيديد Thucydide ذلك سابقا: «نحن نستحق المدح لأننا بيَّنَّا أننا أكثر عدلا مما تنطوي عليه قدرتنا»[1]، تعتمد سلطة واسعة القبول «منذ القدم»[المؤرخ الإغريقي ثوسيديد]، ولكنها غير مقبولة ربما من قبل الناس كلهم.

ثمة حالتان ممكنتان لحجة السلطة: إما أن الخطيب يدعم تأطير الواقع مستندا إلى سلطته الخاصة، وإما أن يستدعي سلطة خارجية. هناك تنويع ثالث يشكل حالة قوية خاصة تتمثل في الاستناد إلى مظاهر خفية حتى الآن لسلطة المتلقي نفسه لأجل جعله يقبل رأيا.

إن طبيعة السلطة نفسها تخضع إلى التقسيم. هل يتعلق الأمر بسلطة مستندة إلى معرفة أو وظيفة عملية، تمنح على هذا النحو كفاية واسعة ونوعا من حق التدخل في بناء الواقع؟ أم يتعلق الأمر بسلطة مكتسبة ظرفيا مثل السلطة التي تخوِّلها للشخص شهادته على الحدث المنقول؟ نرى أنه لا ينبغي هنا أن نخلط بين السلطة والقوة.

إن استعمال حجة السلطة في صيغة الضد a contrario تتمثل في استعمال سلطة سلبية لأجل تبخيس الرأي. في هذه الحالة يمكننا أن نتكلم عن الحجة المستمدة من الشخص ad hominem التي يمنحها روبول النسخة الأخيرة: «هذا أيضا ما كان يقوله هتلر!». إن أعمال جيل جوطيي Gilles Gautier تدل على أن استعمال هذه الحجة متداول في التواصل السياسي، الذي يكون بالقوة ذا طبيعة «خصامية وسجالية»[2].

يرتبط استعمال السلطة بفعل الحجاج، بيد أننا نخرج باستعمال القوة من هذا الحقل لكي نلتحق بعالم يستعمل فيه القهر والعنف. يمكننا أن «نقنع» الآخر بإرغامه على الإيمان بما نقوله له (أو على الأقل أن يتظاهر بذلك). وفي النهاية ليست السلطة

(1) Le monde , 27 Mars 2003.

(٢) ١٩٩١.

في الحجاج سوى اقتراح نقدمه للآخر الذي يمتلك حرية تقبله. إن الحد بين هذين النموذجين في الإقناع ليس طبعا دقيقا إلا نظريا، فالحقيقة تكون دائما أكثر تعقيدا.

بالإضافة إلى ذلك نرى أننا باستخدام حجج السلطة نكون بالضبط على حدود ما يريد الحجاج مقاومته. «أنا أومن بما يقول لأنه هو الذي يقول ذلك» هي خطاطة حجاجية توجد دائما في وضع حرج. فعند سؤال الناخبين حول معرفتهم ببرنامج أحد مترشحي أقصى اليمين الانتخابي، لم يكشف هؤلاء عن جهلهم به فقط، ولكنهم أيضا كشفوا عن عدم اكتراثهم: فإذا ما اختاروا هذا المترشح، فلكي يفوضوا إليه بالضبط مهمة ممارسة السياسة بدلا عنهم. فهو ليس ممثلهم ولكن رئيسهم: فهم يؤمنون بما يقول لأنه هو الذي يقول ذلك. إنه ينطق بما نفكر فيه (وأننا ربما لا نريد أن نمارس التفكير بأنفسنا).

تفويض المعرفة

ولكن، في الوقت نفسه، لا نتوقف داخل الإطار الحجاجي عن الاقتناع بحجج السلطة. يستحيل علينا بالفعل أن نفكر وأن نعيش فاحصين بأنفسنا كل ما يُقِرُّ به الناس الذين نثق بهم ونقبله منهم. إن الرفض الجذري لحجة السلطة ذو صلة بجنون البارونيا الذي يظن صاحبه بكل شخص ظن الاتهام والخداع. فقبول حجة السلطة إذن يعمل مثل «تفويض دائم للمعرفة»،وهو أمر يتعارض بوضوح مع الخضوع إلى القوة.

وقد أصبحت موضعا مشتركا في هذا السياق، فإن المعادلة التي تجعل من المعرفة قوة ليس لها ربما صلة كبيرة بالفضاء الحجاجي، شريطة أن تكون المعرفة على وعي بحدودها. في هذا الصدد يلاحظ بيرلمان أن «حجة السلطة هي صيغة للاستدلال النظري التي تعرضت لهجوم ضار لأنها استُعملت بشكل واسع وبطريقة تعسفية وحاسمة في الأوساط المعادية للبحث العلمي الحر»[1]. هكذا عندما تكلم بوسوي Bossuet عن

---

(١) - ١٩٧٠، ص. ٤١١.

المسيح، حاول أن يكون مقنعا على النحو الآتي: «علينا ألا نبحث عن علل الحقائق التي يلقنها لنا: فالعلة برمتها هي أنه تكلم».

السلطة والثقة

إن وسائل الإعلام اليوم، في شهادتها أو في إعلامها، هي المؤسسة التي تستقطب أكثر هذا التفويض للمعرفة. وفي الوقت نفسه، فإن وجهة نظر نقدية يمكنها أن تجد أن وسائل الإعلام تبني أكثر فأكثر سلطتها على احتكار فعل الشهادة وعلى قوة حقيقية في المجتمع.

يطرح هذا التفويض مسألة الثقة بوصفها سؤالا قديما في البلاغة. فالخطيب «الموثوق به» يجعل تأطير الواقع الذي يقترح أكثر قبولا. وهكذا كما يُذَكِّرُنا بيرلمان، «قبل أن نستند إلى سلطة، فإننا غالبا ما نؤكدها ونعضدها، ونمنحها رصانة شاهد مشروع»[1]. لكن لا ننسى مع ذلك أن حجة السلطة، كما نتصورها هنا، تظل حجة ولا تتعلق بما يحيط بالحجاج من استهلال أو خاتمة تعملان على «إعداد المتلقي» أكثر مما تعملان على الاستدلال، وذلك على سبيل المثال باستعمال الحظوة الواقعية أو المفترضة للخطيب أو للسلطة المستند إليها. نميز إذن هنا بين ثلاثة أصناف من الاستدلال المبني على السلطة: الاستدلال بواسطة الكفاية، أو بواسطة التجربة، أو بواسطة الشهادة. يثير كل صنف من هذه الأصناف، بطريقته الخاصة، مسألة الثقة.

الكفاية

تفترض حجة الكفاية مسبقا كفاية علمية، وتقنية، وأخلاقية أو مهنية تعمل على إضفاء الشرعية على النظر إلى الواقع الذي ينجم عنها. إن رأي أستاذ الأدب في قيمة رواية من الروايات، ورأي المهندس في سلامة أحد السدود، كلاهما سيكون أكثر

(١) ١٩٧٠، ص. ٤١٥.

وزنا من الرأي الذي يبديه أستاذ الأدب في سلامة السد نفسه، أو رأي المهندس في الرواية. لكن الخبراء يخطئون هم أيضا، ولا يحصل بينهم الاتفاق دائما، ومن ضمن ذلك اختلافهم حول المشاكل الشائكة جدا. ومهما يكن، يستفيد الرجل الكفء من الهالة التي تدعم آراءه، حتى في المجالات البعيدة عن كفايته.

ولتدعيم الرأي الذي ينبغي بواسطته أن «نعامل جيدا»، خوسي بوفي José Bové الذي سجن بسبب جنح مختلفة، فقد حاجج فرانسي-أندري وولمان Francis-André Wollman، مدير الأبحاث في المركز الوطني للبحوث العلمية CNRS، والباحث في البيولوجيا النباتية، على النحو الآتي: «هاهو وحده الشخص الذي خصد الحقول المحوَّلة جينيا وحطم الأوعام[1] التي تفسح المجال للتجارب، يجب أن يوضع في السجن. أنا باحث، وأرى هذين الفعلين مكروهين وغبيين. فمهنتي تقودني إلى أن أتمنى أن تُحَلَّ القضايا السياسية المثارة في التطور العلمي والتقني بواسطة التحليل والتفاوض وليس بضربات «الحملات المناضلة» ضد الوسائل التجريبية كيفما كانت طبيعتها. ومع ذلك، أتساءل عن أسباب هذا العقاب الانتقائي»[2]. يعمل صاحب هذه الحجة على التلاعب المضاعف بسلطته، فمرة بكفايته بوصفه «باحثا في البيولوجيا النباتية»، مفضلا «التحليل والمفاوضة»، ومرة ثانية حين يجد هذين الفعلين «مكروهين وغبيين». إنه إذن متهم نوعا ما بالتعاطف مع خوسي بوفي. فـ«سلطته» تجعله إذن حرا في دعم رأي ما جزئيا لصالح هذا الأخير.

فما يصدق على الناس، يصدق أيضا على المؤسسات التي تستعمل عادة في المجادلات الحجاجية. عندما أراد إدوارد باللادور أن يحاجج بوصفه وزيرا أوّلَ موضوع واقع إعادة الازدهار الاقتصادي، كان قوله كالآتي: «ليست الحكومة هي التي تقول ذلك، بل إنه

(١) - محابق مصنوعة من الطين تملأ بالتراب وتزرع فيها النباتات التي تستغل في البحوث البيولوجية النباتية. (المترجم)

(2) Le Monde, 2 Juillet 2003.

(المعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصادية) L'INSEE، وعلماء الإحصاء لا يقدمون الهدايا لأحد[1]».

ويُلَاحَظُ أننا بالفعل بصدد حجة مزدوجة، أولا معاينة الواقع من قبل علماء الإحصاء، ثم الاستناد إلى سلطتهم.

والغريب أنه من الممكن أن يسهم الإقرار بعدم الكفاءة مع إبداء الرأي حول القضية في جعل القول مقنعا. ولا ينبغي أن نرى في هذا إجراء خطابيا، بل إنه تواضع حقيقي مقبول من الخبراء والتقنوقراط من جميع المجالات في زمن الحذلقة.

التجربة

لا تعتمد حجة التجربة كثيرا على كفاية تُتَّهم دائما بكونها نظرية، بقدر ما تعتمد على ممارسة فعلية في المجال الذي يعبر فيه الخطيب: «أنا بنفسي، خضعت للتنصت...»، قال السيد فيرجيس هذا القول في مثال مذكور آنفا للدفاع عن شخص ينصب بالضبط أجهزة التنصت الهاتفي. إن له إذن التجربة في التنصت (ولكن ليست له الكفاءة) ويستطيع أن يتذرع بواقع له عليه نوعا من السلطة. يمكن أن يدعم المحارب القديم إدانته للحرب، «التي ليست نزهة»، بمثل تلك الفظاعة التي عاشها في الحرب. فالمعادل في هذه الحالة للإقرار بعدم الكفاءة هي حجة البراءة: «أنا لا أعرف شيئا عن القضية، ولكن يمكن أن أقول إن...» وتعادل البراءة هنا حيادا صارما يتزاوج مع نوع من «نقاء» التقدير.

حجة الشهادة

إن الحضور في مظاهرة، أو حدث، يؤكد سلطة محققة تعمل على بناء سلطة الشهادة. فشاهد على حدث يومي سيكون له تأثير أكبر لأجل اقتراح تأطير من منظور حجاجي.

(1) Le monde, 25 Octobre 1994.

ما الفرق بين التجربة والشهادة؟ وكلاهما يحيل إلى ممارسة ملموسة، لكن التجربة تتضمن مدة وتراكما، في الوقت الذي تكون فيه الشهادة آنية. فحجة الشهادة ترتكز أيضا على قول... إننا لن نقول شيئا، طالما أن الوقائع تتعذر على البيان، ولكن على الرغم من ذلك تصلح هذه الحجة للاستدلال على غياب الحكي الذي يجعل الواقع على نحو مفارق أقوى حضورا.

هناك مثال غريب لهذه الحجة يزودنا به مشهد مسرحي في مسرحية هنري الخامس لويليام شكسبير. الإنجليز موجودون في أزانكور Azincourt حيث كانوا منهوكين وقليلي العدد، ويجب عليهم أن يواجهوا نخبة الخيالة الفرنسية التي قطعت عليهم الطريق، وقررت إبادة هذه الحفنة من الباقين على قيد الحياة. ويجتهد هنري الخامس في رفع معنويات جنوده وشحذ هممهم وإقناعهم أنهم سينتصرون على الرغم من ذلك. بالنسبة إليه لا يمكن مع ذلك لأي تأطير فعلي للواقع أن يُذكَر ما دام الوضع ميئوسا منه. وسيعمل هنري الخامس مستقبلا على توظيف شهادة أحد جنوده إلى حفيده بعد أن صار جَدًّا، وذلك حول الطريقة التي فاجأ بها الإنجليز الفرنسيين فهزموهم شر هزيمة في أزانكور. وحين اقتنعوا بحقيقة المشهد الذي لم يعيشوه بعد، عاودتهم شجاعة الظفر بالمعركة.

إن استدعاء «سلطة سلبية» أو الاعتراض على سلطتها لعدم الكفاءة والتجربة أو لأن شهادتها لم تكن قائمة على شروط جيدة، هي إجراء متداول في الحجاج. فلكي ينتقد كل من فرانسوا جيز François Gèze وسليمة ملاح Salima Mellah وجهة نظر أندري جلوكسمان André Glucksmann وبيرنار هنري ليفي عن الجزائر، وهما العائدان قريبا من سفرهما ويمتلكان مسبقا سلطة تؤهلهما للحديث عن الجزائر، أثبتا في انتقادهما أنه « ليس أثناء السفريات المنظمة والمخطط لها تحت حراسة الشرطة، نستطيع جمع الشهادات الموثوق بها» وأنه بذلك «كان من الصعب عليهما أن «يكشفا» شيئا آخر غير الحقيقة الرسمية التي تُجَرِّمُ الإسلاميين وحدهم»[1].

(1) Le Monde, 23 Décembre 2000.

الفصل الخامس

حجج الاشتراك

إن استدعاء افتراضات مشتركة يستعمل بشكل واسع، وخاصة في كل الحالات التي يوجد فيها مسبقا اشتراك واضح في التفكير والفعل بين الخطيب والمتلقي.

فاستدعاء الافتراضات المشتركة يترتب عليه إذن «تأثير الاشتراك» الذي يشكل صنفا من أصناف الحجاج المحافظ إجمالا في تأثيراته، ما دام، كما لاحظ أوليرون، أن حشد قيمة لأجل المحاججة يسهم بالفعل في تثبيتها[1]. بيد أن الاستخدام المفرط لتأثير الاشتراك يمكن أن يخرج فعل الإقناع من حقل الحجاج.

ما هي «الافتراضات المشتركة» التي تستعمل عادة في الحجاج؟ يجرى عادة تمييز بين ثلاثة أنماط: الآراء «المشتركة»، و«القيم»، و«المواقف المشتركة». ويكون من الصعب أحيانا تصنيف ملفوظ يعمل بوصفه افتراضا مشتركا في هذا أو ذاك من هذه الأصناف الثلاثة النموذجية. فعالم الأفكار والمعتقدات غالبا ما ينفلت من التصنيفات المحصورة جدا. فلنحاول مع ذلك أن نميز بينها.

---

(١) ١٩٧٣، ص. ٧٩.

الاستناد إلى الرأي المشترك

فالرأي «المقبول جماعيا» غالبا ما يكون موقفا مبتذلا تحول إلى موضع مشترك ذي فعالية حجاجية فقيرة. إننا نقبله، ولكن بشكل ضعيف، لأنه مشترك عام. فالأمثال، والصيغ، والحِكَم تحمل، باسم «المعرفة الشعبية» (والتي لا يجب أن تختزل في هذا)، هذه المواضع المشتركة التي تعرضت للضعف من جراء الاستعمال، مثال ذلك: «لا يجب وضع البيض في سلة واحدة». فهذه الصيغة المبتذلة يمكنها مع ذلك أن تحمل على نوع من الإذعان في ظروف خاصة.

فكثير من الأمثال تستخدم لتدعيم الحجج المختلفة. هكذا أجاب رولان دوما Roland Dumas أثناء محاكمته في شهر يناير ٢٠٠١: «إنه لمن السهل أن ننتقد الحياة الخاصة ! ولكنني سأستشهد بالإنجيل الذي جاء فيه: فَلْيرمني بحجر من لم يرتكب خطيئة قط، وسأضيف هذه الجملة: عند هذه الكلمات، قام الجميع وذهبوا وكأن أول من فعل ذلك الأقدمون»[١]. وعلى نحو أكثر خشونة، انتقد جاك بيرا Jacques Peyrat، عمدة مدينة نيس Nice، مساعدته السابقة جاكلين ماتيو- أوباديا Jacqueline Mathieu-Obadia التي استقالت من منصبها مُنَدِّدًا بتلك «التي حاولت أن تكون أكثر ضخامة من العجل وهي مثل ضفدعة»[٢]. فالصيغ تستهلك بكثرة الاستعمال، بَيْدَ أن بعضها يحتفظ مع ذلك بحُمولة معينة، مثال ذلك تصريح دانييل كوهن-بيندي Daniel Cohn-Bendit منتقدا الإنجليز قائلا: «إنهم يريدون الزبدة ونقود الزبدة، يريدون أوروبا وليس أوروبا»[٣].

توجد هذه الأمثال في كل الثقافات (فحجة الاشتراك يمكنها أن تكون الحجة الأكثر قدما والأكثر كونية). هكذا، فإن مقتدى الصَّدر، القائد العراقي الشيعي الشاب، الذي

(1) Libération, 25 Janvier 2001.

(2) Libération, 15 Décembre 2000.

(٣) استجواب في المحطة التلفزيونية Arte، الثامن من شهر ديسمبر، ٢٠٠٠.

يمتلك شعبية كبيرة في بلده، احتج لضرورة مغادرة الأمريكيين للعراق بالمثل الآتي: «إذا كان الأمريكيون قد جاءوا إلى العراق بوصفهم محررين فتلك قصة أخرى. وبالفعل، فهي قصة الرجل الذي تسلل إلى بيته فأر، ولم يعرف كيف يتخلص منه، فاستدعى قطا لدخول بيته. وسرعان ما أصبح الرجل سعيدا لأن القط التهم الفأر. وبعد ذلك، واجه الرجل مشكلة أخرى: القط لا يريد مغادرة البيت... »[1]. والملاحظ أن المثل يكون في بداياته التاريخية تماثلا، ما يفتأ «يبرد» مع مرور الزمن ليصبح معتقدا شعبيا يتيح بناء حجاج من طبيعة أخرى.

إثبات القيم المشتركة

«كل إجراء يتيح إنقاذ الحياة البشرية، هو إجراء جيد»، هكذا صرح الناطق الرسمي باسم رابطة مكافحة حوادث السير في إذاعة أخبار فرنسا France_info يوم الخميس ٢٧ نوفمبر ١٩٩٧. فالقيم المشتركة، مثل الحياة هنا، تكوِّن دعما أساسا لتطوير الحجاج.

إن استدعاء القيم يشكل في حد ذاته حجة؛ فهو يؤطر الواقع بقوة إذ تمتلك القيم غالبا حمولة واسعة كما تمتلك قوة حَـثٍّ نافذة. ليست غايتنا رسم خريطة القيم الكبرى التي كان يجري استعمالها في الحجاج، في الماضي كما في الحاضر. فعبء المهمة ضخم ولا يتسع له مشروع هذا الكتاب.

فلْنُذَكِّرْ ببساطة ببعض الخطوط العريضة. كان قدماء الإغريق يميزون بين ثلاث قيم رئيسة: الحق، والجمال، والخير، التي تعد مُثُلاً يتطلع الإنسان إليها، بقدر ما تعد في الوقت نفسه معايير حجاجية. إن رأيا ما يستمد احتماله وقوة إقناعه من كونه يتلاءم مع تضافر هذه القيم. إن تأثير المسيحية أبرز الفضيلة بوصفها قيمة مركزية. فالمثل الأعلى لإنسية النهضة يتمفصل حول أربعة موضوعات وهي: التحكم في الذات، والمدنية، وتذوق الجمال، والفضول الفكري. ففلاسفة عصر الأنوار يقرنون الفضيلة بالمعرفة:

---

(1) Le monde, 1 Juillet 2003.

لقد أعلنت دائرة المعارف أنه «يجب تجميع المعارف المنتشرة في مساحة الأرض لأجل أن يصبح أحفادنا أكثر فضيلة». على الرغم من أن نيتشه nietzsche والخطاب المعاصر تحدثا عن «ضياع القيم» في إعادة طرحهما لسؤال القيم، فإنها تضطلع بدور مهم في مجتمعنا، حيث تمنح علامات جوهرية بتأسيسها معظم المعايير الاجتماعية.

المرغوب والمفضل

ما القيمة؟ القيمة بالنسبة إلى جان-بول ريسويبير Jean-Paul Resweber[1]، هي «صورة للمرغوب». إنها تشكل في كل حال من الأحوال هرمية للمفضل، بناء عليها نُقوِّم الآراء والسلوكات، آراءنا وسلوكاتنا، وآراء وسلوكات الآخرين. وبصفة عامة تمثل القيم «كيانا مشتركا، يُكَوِّنُ أسس الثقافة، ويحدد الطرق التي تجعل أعضاء جماعة معينة تسكن عالما واحدا».[2] ويضيف أنه لا وجود لتواصل ممكن في غياب القيم «ما دام الرابط الاجتماعي لا يوجد إلا إذا أحيينا القيم الضمنية بطرحها وتأويلها.»[3] إنها تضطلع إذن بدور أساس في الحجاج بوصفه نشاطا تواصليا.

هل القيم كونية؟ هذا السؤال يعيد طرح قضية الكونية بوصفها قيمة...فلنضع القضية على نحو آخر: أن توجد قيم فتلك مسألة كونية. بهذا المعنى تتعلق القيم بأنتربولوجيا جوهرية. ولكن كل جماعة، وكل تجمع بشري، ينتظمان حول قيم مخصوصة، على الرغم من أن الأمر يتعلق، وفق تعبير دومينيك شنابير Dominique Schnapper، بـ «جماعة من المواطنين». كما أن هذه القيم تتطور في التاريخ، على نحو ما لاحظ روبريو Robrieux ذلك: «بعض القيم تتناقض فيما بينها أحيانا أيضا، من عصر إلى عصر أو من مجتمع إلى آخر: هكذا، فقد وُطِّد العمل (أو أعيد خلقه) بوصفه قيمة مع

---

(١) ١٩٩٢.

(2) Resweber,1992, p.17.

(3) Resweber, 1992, p.35.

المجتمع الصناعي، وأصبح مقبولا اليوم من المجتمع، بعد أن كان محتقرا من قبل نبلاء الرومان مثلما كان محتقرا من قبل نبلاء الحكومة الفرنسية قبل الثورة. في عصرنا هذا تبدو المجاملة، وهي قيمة ضرورية في الشرق الأوسط، مشبوهة أحيانا في الغرب»[١]. لا وجود لحجاج كوني في غياب قيم كونية. على هذا النحو يمكننا أن نتحدث عن «جماعة حجاجية» للإشارة إلى جماعة تشترك في عدد معين من القيم ذات الصفة الجوهرية.

الجماعات الحجاجية

إن التحليل الذي قام به أولي وانديش Uli Windisch للجدالات التي كانت قائمة في سويسرا، بمناسبة «التصويت» على ضرورة الجيش، يشير جيدا إلى كيف تتعارض حجتان من حجج الاشتراك. فقد لاحظ الكاتب أن « الموضوعات التي انصب عليها النشاط الحجاجي لأنصار الجيش وخصومه، كانت قليلة العدد، إذ لم تتجاوز العشرة»[٢]. ثلاث حجج على الأقل تستدعي مباشرة قيما: أي الحجج «القائمة على تعريف الطبيعة الإنسانية»، والحجج «الدينية»، والحجج «الأخلاقية»؛ فأنصار الجيش مثلا يستدعون تمثلا للإنسان بوصفه ذا «طبيعة» عنيفة، بينما يقترح أنصار السلام متابعة تطور الأنواع البشرية، أي من الطور البدائي إلى مرحلة الإنسان، مستشهدين هكذا بوجهة نظر متفائلة. فنحن هنا نتأرجح بين حجة التعريف واستدعاء القيم. فالحجج «الأخلاقية» المستخرجة من قبل أولي وانديش تستدعي مجموعة من القيم كقيمة نبذ العنف، وقيمة قوة النفس، وقيمة التسامح.

ولقد صيغ أحد ملفوظات الجدالات التي حللها هذا الباحث على النحو الآتي: «إن انعدام العنف الإيجابي الذي يمارس في حالة النزاع وفي مواجهة عنف الخصم، هو على العكس يولد علاقات عميقة بين الأفراد كما يولد التضامن، وتشارك الفكر

---

(١) - ١٩٩٣، ص.١٥٦.

(2) Wandisch,1995, p. 73.

والجماعة»[١]. يوضح هذا المثال جيدا ما يراه روبول في قوله «توجد القيم في أساس الحجاج وحَدِّه»[٢]. إن بناء الحجاج على قيمة من القيم يؤدي إلى تنشيطه وإلى إعطائه وزنا أكبر أيضا.

قيم محافظة وقيم ثورية

لا يرى منظرو الحجاج في تصنيف القيم أي عيب، ليس من وجهة نظر فلسفية وأخلاقية، ولكن من جهة استعمالها في الإقناع. هكذا يميز بيرلمان بين «القيم المجردة» مثل العدل والحق، وبين «القيم الملموسة» مثل: الكنيسة، وفرنسا، والوطن. وقد أضاف قائلا: «إن الاستدلالات القائمة على قيم ملموسة تبدو من سمات المجتمعات المحافظة، بينما ترتبط القيم المجردة التي يسهل استخدامها في النقد بتبرير التغيير والروح الثورية»[٣].

ويقترح بيير أوليرون تصنيفا «للمفاهيم الرخوة» التي يستند إليها الحجاج، والتي تتقاطع في الجزء الأكبر مع عالم القيم: الحياة (التكوين، القيمة)، والإنسان: (الأصل، المصير، الحقوق)، والعدالة: (التضمينات الأخلاقية والاجتماعية، والتفعيل)، والسلم: (الأشكال، الشروط)، والأمة: (قيمها وحدودها) والطبيعة: (الاستغلال، المحافظة)، والحرية، والمسئولية، والموت (حق التصرف)، والخير، والشر، والعقاب، والعفو.

والملاحظ في النهاية أن قضية صراع القيم هي عنصر مهم في المجادلات الحجاجية. مثلا: هل نحن أحرار في تدمير صحتنا؟ في الجدال حول تشريع المخدرات، يمكننا أن نعارض بين قيمتين: الصحة من جهة، بوصفها قيمة ملموسة قوية في مجتمعاتنا، والحرية من جهة ثانية بوصفها قيمة مجردة توجد في أساس حياتنا الديموقراطية. مهمة الدولة

---

(1) Wandisch, 1995, p.75.

(٢) - ١٩٩١، ص. ١٦١.
(٣) - ١٩٨٨، ص.٤٢.

تكمن في المحافظة على الصحـــــة العامة؛ فهل تستطيع لأجل ذلك اتخاذ الإجراءات اللازمة التي تحد من الحريات؟ إن هذا التناقض يوجد في أساس حجاج آلان جيرار سلمى Salma[1] Alain-Gérard، في نقده للمعايير التي تخنق -حسب رأيه- المجتمع الديموقراطي. بالنسبة إليه، يرى أن هناك، على كل حال، صراعا بين هاتين القيمتين، وأنه يجب اختيار الحرية مهما يكن الأمر.

وعلى المنوال نفسه، حاولت فرانس كيري France Quréré أن تنصب للكنيسة الكاثوليكية فخ القيم بإثارة التناقض الآتي: «إذا كان الإجهاض «إثما»، فإننا لا نفهم عناد الكنيسة في رفض اللجوء إلى أفضل الإجراءات الوقائية المتمثلة في وسائل منع الحمل» التي تشكل إثما «أقل ضررا» في هذا السياق[2]. ولكننا ننسى أن الكنيسة تدين أي إثم، وأن مذهبها الفعلي لا يقبل فكرة تحمل شَرٍّ «هَيِّن» لأجل تجنب شقاء عظيم. إن القيم هنا لا تتجزأ.

المواضع

ما الفرق بين المواضع والقيم؟ بالنسبة إلى بيرلمان، فإنه «بالعودة إلى ما هو أكثر عمومية، نصل في مجال القيم إلى مواضع المفضل التي تضطلع بدور مماثل لدور الافتراضات»[3]. المواضع بالنسبة إليه إذن، هي قيم أكثر تجريدا وغير يقينية، يصنفها روبريو ضمن «الحجج القسرية» ويؤكد طبيعتها «التطويعية المفترضة» «الناجمة عن وضعها بصفتها مفترضات، والناجمة بالتالي عن اتفاق المتخاطبين حول صلاحيتها»[4]. بالنسبة إلى روبول، يتعلق الأمر بـ «إجماع عام جدا حول وسيلة بناء قيمة شيء»[5]. فالمواضع والقيم تشترك في كونها هرميات.

---

(١) ١٩٩٥.

(٢)- مثال ذكره Lionel Bellenger ١٩٩٢.

(٣) ١٩٨٨، ص.٤٣.

(٤)-١٩٩٣، ص.١٥٩.

(٥)- ١٩٩١ن ص. ١٦٨.

وسنميز مثلا موضع الكيف باعتباره مقابلا لموضع الكم. هكذا، فقد أجاب نيكولا ساركوزي Nicolas Sarkozy، وزير الاتصالات في سنة ١٩٩٤ في خطاب أمام المجمع الوطني على مؤاخذات النائب البيرلماني روبير-أندري فيفيان Robert-André Vivien الذي لم يتدخل بسرعة في قانون إضراب صحافيي الراديو الشعبي، بالطريقة الآتية: «ما يهم ليس هو الزمن الذي نقضيه للخروج من الأزمة، ولكن الطريقة التي نخرج بها منها»[١].

إن مَوْضِعَ الكَيْفِ هنا «تقهقر» من جهة أخرى في المثل القائل إن «الأحسن يساوي أقل ولكنه الأحسن»[٢]. وهذا الموضع هو الذي يقوم عليه قولنا مثلا إنه لا فائدة ترجى من العدد الكبير من عناصر القوات العمومية في الشارع، بينما يتيح العدد القليل ممن يتقنون العمل منهم الحصول على نتيجة أفضل.

ما المواضع الكبرى التي يستند إليها الحجاج؟ يميز روبول بين ثلاثة منها: موضع الكم، وموضع الكيف، وموضع الوحدة. فبالنسبة إلى ريبول «ما هو مفرد أو ناجم عن مفرد يحظى بالمقام الأعلى»[٣]. أما بيرلمان فيميز على الأقل بين سبعة مواضع دون أن يتوخى الحصر.

موضع التعادل

إن أحد المواضع الأكثر تميزا للمجتمع الغربي في غالب الظن، والذي يحتمل أن يكون مرتبطا بإرثه الديموقراطي اليوناني، هو موضع التعادل الذي تشتق منه قيمة المساواة. فهذا الموضع يتحكم بقوة في مطلبنا في التبادلية داخل سلسلة كاملة من المواقف الملموسة، من دون أن نعرف مع ذلك دائما بوضوح سبب ذلك، مما يدل جيدا على الاشتغال العميق جدا للمواضع.

---

(١) - مذكور من قبل Le Monde, Alain Salles، ٣٠-٣١ أكتوبر ١٩٩٤.

(2) Mieux vaut moins mais mieux.

(٣) - ١٩٩١ن ص. ١٦٨.

يتعلق الأمر، حسب بيرلمان، بقاعدة العدل ذات الطبيعة الصورية الخالصة التي «تقضي بأن نعامل الكائنات التي تنتمي إلى النوع نفسه معاملة واحدة»[1]. مثال ذلك موضوع التلاعب بالألفاظ الذي أعادت لوسي أولبرخت تيتيكا استخدامه: «أنا لا أفهم كيف أن التسول يمكنه أن يكون جناية في مجتمع يرى الإحسان فضيلة»[2]، أو بعبارة كونطيليان Quintilien الذي يقول: «إن ما هو شريف في تعلمه، هو أيضا شريف في تعليمه».

تتجلى حجة التعادل بشكل خاص في مثال مستقى من الجدال حول العنف في التلفزيون، والذي يدافع فيه كاطلين مككونيل Katleen McConnel، الباحث في جامعة ماري-لاند Mary-land عن وجهة النظر الآتية: «إن مدينتي المضيق Détroit في ولاية (ميشيجان) Michigan وواندسور Windsor في (كندا)، اللتين نمتا من جهتي النهر نفسه، تتلقيان بالضبط البرامج التلفزيونية نفسها. بيد أن نسبة الإجرام في المضيق تفوق أربع عشرة مرة نسبة الجريمة في واندسور. والأمر نفسه بالنسبة إلى مدينة شيكاغو وطورونطو»[3].

إن الرأي الذي يدافع عنه الباحث هو أن تمثيل العنف في التلفزيون ليس مسئولا عن العنف في الحياة اليومية. ولأجل ذلك ضرب مثالا بمدينة Détroit الأمريكية التي يقال إن سبب الجريمة فيها كما في حالة المدن الأمريكية الأخرى يرجع إلى البرامج التلفزيونية العنيفة. إذا كان التلفزيون في حالة من الحالات سببا في العنف، فيتوجب عليه أن يكون كذلك أيضا في الحالة الأخرى، أي في حالة مدينة واندسور الكندية «المشابهة» لها من جميع الجوانب. يمنع هنا إذن مبدأ التبادل أن يكون التلفزيون، بصفة عامة، سببا في العنف داخل المجتمع.

---

(١) - ١٩٨٨، ص.٨٠.

(٢)- مذكور من قبل Perelman، ١٩٨٨، ص.٨٣..

(٣) مذكور من قبل Olivier pérétié، مجلة Le Nouvel Observateur، ١٣-١٩ أكتوبر ١٩٩٤.

نلاحظ بخصوص هذا المثال، وعلى نحو أعم، استعمال صيغة يطلق عليها الضد a contrario التي ترتكز على إثبات أن العكس «خاطئ»، وأن تعادليته كانت احتمالية جدا. فالأمر هنا لا يتعلق بحجة بالمعنى الدقيق، ولكنه يتعلق بالأحرى بصيغة، لأن هاته تراكب في الغالب على حجة بالمعنى الدقيق. يوجد هنا مع ذلك شكل اتخذ بالاستنباط. وهو يَفْتَرِضُ أننا بصدد الضد لأجل إضعاف بل وهدم الحجة.

المواضع بوصفها اعتقادا في نظام الكون

إن وجود المواضع، وبصفة خاصة استعمالها في فعل الحجاج، يبين أنها أصبحت ممكنة بواسطة الاعتقاد المشترك الذي يقتضي بأن العالم والكون الرمزي الذي تنمو فيه وُهِبَ نظاما معينا، وأن هذا النظام قابل للمعرفة على الأقل جزئيا. بهذا المعنى، تسهم في بناء الكون المرجعي الذي يتبادله شركاء التواصل. وعلى العكس من ذلك، فعدم مشاطرة هذا الموضع الأساس («الكون له نظام») يخرجنا من فضاء الحجاج ليعيدنا إلى العنف.

فحجة الاشتراك، التي تستند إلى الافتراضات المشتركة، تفترض اتفاقا مسبقا مع المتلقي حول الموضع أو القيمة المثارة عنده. و في هذه الحالة هناك قليل من «القيمة المضافة» لأن الأمر يقتضي ببساطة أن نبين -وأن نستخلص نجاعة حجاجية- أن هذا الموضع أو هذه القيمة تحتوي الرأي المقترح بطريقة معينة. وليس لهذه الحجة حظ وافر في الإقناع خارج جماعة ذات انتماء مشترك.

الفصل السادس

حجج التأطير

ينطوي اللجوء إلى القيم، وإلى المواضع، وإلى السلطة المقبولة، على استدعاء عالم معروف ومشترك، يُستخدم فورا بوصفه واقعا مرجعيا. وينطوي تأطير الواقع على جِدَّةٍ، ونقل نظرة أخرى. وخير مثال على هذا الإجراء الحجاجي يزودنا به طوم سوير Tom Sawyer، بطل مارك طوين Mark Twain، الشاب الذي يظهر في مشهد يتعرض فيه لعقوبة استوجبت منه تبييض سياج عريض من الخشب بالجير. لم يضايقه منظور العمل اليدوي الذي سينجزه بقدر ما ضايقته نظرات زملائه في اللعب، لأجل ذلك، عرض الفتى عليهم استراتيجية تسعى إلى إقناعهم أن الأمر لا يتعلق بـ «عمل» ولكن بنشاط ممتع وذي قيمة لا تتاح لنا الفرصة دائما للقيام به. وكما يقول مارك طوين: «لقد بدت المسألة عندئذ في ضوء جديد». وتسارع زملاؤه ليس لتأييده فقط، ولكن لمساعدته، بل إن بعضهم مضى أبعد من ذلك فأدوا له عُشُورًا حتى يتمكن من إنجاز عمله.

إعادة تنظيم العالم

إن بناء «عالم مرجعي» مشترك بين المتلقي والخطيب، يمكنه أن يستعير طرقا مختلفة. يعني البناء عدم وجود اتفاق حول عوالم مسبقة كما هو الحال عند استدعاء المواضع

والقيم، أو الاعتراف بوزن سلطة ما. فلم يكن من المحتمل أن يحصل طوم سوير على شيء إذا كان قد استدعى «العمل» بوصفه قيمة مشتركة ليطلب من زملائه أن يقدموا له العون. وتوجب عليه إذن أن يخطو جانبا كي يعيد تأطير الموقف (هذا «الخطو جانبا» هو الذي أخرجه مارك طوين، من جهة أخرى، في صورة أنيقة عندما جعل طوم سوير يتراجع في اللحظة الاستراتيجية لأجل تفقد عمله في طلاء السياج إلى حد أنه أعطى الانطباع بأنه يتسلى).

ينطوي هذا الصنف من الحجج على جِدَّة بالنسبة إلى المتلقي. فهذه الحجج تستدعيه إلى عالم لم يسبق له أن فكر فيه تلقائيا؛ عالم لا تعمل فيه نقط استدلاله المعتادة، حتى وإن كانت «العناصر» التي تُكَوِّنُ هذا العالم الجديد معروفة لديه بطريقة منفصلة. وهكذا قرر روبير بادانطر Robert Badinter في دفاعه عن متهم مهدد بحكم الإعدام، وضع القضاة أمام مسؤوليتهم. إنهم لا يقررون ببساطة حكما مجردا. إذ يترتب على اختيارهم واقع هو الموت بالمقصلة التي لا يريد من دون شك أن يراها عن قرب. وهكذا حاجج بنجاح ملحا على أن فعل «القتل بالمقصلة ليس إلا أن نأخذ رجلا حيا ثم نقطعه نصفين»، وأضاف قائلا: «لكم أن تقرروا إن كان باتريك هنري Patrick Henri يجب أن يقطع حيا نصفين في ساحة السجن»[١].

ولعل حجة التأطير هي إحدى الحجج الأولى التي استعملت بوصفها وسيلة بلاغية في العصر القديم. كيفما كان شكلها، فإنها تضطلع دائما بتفعيل المبدإ نفسه: أي تفخيم بعض المظاهر التي تستحق ذلك في الواقع المعروض، وتلطيف مظاهر أخرى. يقول لنا بيرنار كوشنير Bernard Kouchner في ما يخص مرض السيدا: «إن المرضى موجودون في الجنوب، والأدوية موجودة في الشمال»[٢]، مدافعا بواسطة تأطير ملائم عن رأيه حول انعدام المساواة الجوهرية في هذا المجال. وعلى هذا النحو، يقلل من المرضى الموجودين في

(1) Badinter, 2000,p.84.

(٢) – مذكور من قبل Le Monde, Daniel Choen، ١٣ سبتمبر ٢٠٠٠.

الشمال بالنسبة إلى انتشار المرض (وأغلبهم يتلقون العلاج الكافي)، ويقلل من الأدوية في الجنوب (فهي قليلة).

ولكن، ألا ينطوي عدم تقديم الوقائع بكل موضوعية على تطويع ألا نقوم هنا بـ «لَيِّ الواقع»؟ وجوابا عن هذه الأسئلة، نقول إن الحجاج بالمعنى الدقيق لا يصلح إلا في المواقف- المتعددة جدا- التي لا يوجد فيها واقع واحد ممكن، ولكن توجد مواقف للتأويل ووجهة النظر. ماذا يعني الحكم على رجل بالإعدام في المسطرة القضائية؟ هل توجد طريقة واحدة للنظر في هذا الموضوع؟ عندما يكون نسق الوقائع من قبيل البداهة، وعندما يكون الوصف الموضوعي ممكنا، لا يكون بتاتا في فضاء الحجاج ولكن في فضاء الإعلام، أو العلم.

بالتأكيد يكون التطويع دائما ممكنا في هذه المواقف. إنه ينطوي على الإخفاء بدل التقليل، أو على تقديم وصف حجاجي كما لو أنه وصف موضوعي غير قابل للنقاش. وتنطوي حجة التأطير على أن متلقيها يعلمون دائما أن الأمر يتعلق بطريقة من بين طرق أخرى ممكنة، حتى وإن رمينا بثقلنا لصالحها.

لقد رتبت حجج التأطير هنا في خمسة أصناف: التعريف، والتقديم، والوصل، والفصل، والحجج شبه المنطقية.

التعريف

يروم التعريف بلوغ «النهاية»؛ أي «نهاية عمل». (كان كونطيليان يسميه من جهة أخرى la finitio). إنه يمثل في أغلب الأحيان، بما في ذلك على مستوى الأسلوب، إجابة عن سؤال. تساءل الأستاذ هوللو Holleaux، محامي الطرف المدني عند محاكمة بوعالم بنسعيد المتهم بوضع قنابل، «ما هو القتال؟»: «إن الأطراف المدنية لا تستطيع قبول تعريف القتال الذي يسلمنا إياه بوعالم بنسعيد. فالقتال يعني المواجهة، وعند الإمكان تكون المواجهة بأسلحة متكافئة. فلا وجود لقتال بين من يضع قنبلة على

سكة قطار ذي السرعة الفائقة TGV ومن يركب هذا القطار ليلتحق بعمله»[1]. تساءل خوسي بوفي José Bové: «ما هي الحمى القُلاعية؟[2]»، ثم أجاب قائلا: «هي أزمة نظام الإنتاج الذي يتطلب من قبل أوروبا تفكيرا عميقا حول نظام الفلاحة الذي تم وضعه في بريطانيا العظمى ولكنه تعمم للأسف على سائر القارة الأروبية»[3].

ومن الواضح، في كل الحالات، أن الأمر لا يتعلق باقتراح تعريف موضوعي لظاهرة ما، ولكنه يتعلق بالإلحاح أكثر على المظهر الذي يبدو أكثر تحديدا لتخصيصه. هكذا انتقد وكيل مدينة ميلانو السابق أنطونيو دي بييرطو سبب تعليق محاكمة [سيلفيو بيرلوسكوني Silvio Berlusconi] المتمثل في «المصلحة الوطنية»، وأضاف حجة التعريف: «أنا أعتقد أن المصلحة الوطنية تتمثل أولا في مطالبة العدالة بتحديد من يحكمنا»[4]. ومع التعريف نظل في مجال الحجاج الذي هو اختيار من الاختيارات الممكنة.

نحرص هنا على ألا نخلط بين التعريف بوصفه وسيلة للمعرفة وحجة التعريف بوصفها بناء للواقع قصد المحاججة. ومع ذلك فهذا الخلط قائم عند عدد كبير من المؤلفين الذين يحذرون من وجود تعريفين أحدهما «علمي» وآخر «بلاغي».فهم لا يترددون، على الرغم من كل شيء، في تخزين مجموع الميراث.

يتميز التعريف الحجاجي كثيرا عن التعريف المعياري أو الوصفي، الذي يفترض تطابقا قابلا للمراقبة بين المعرَّف والمعرِّف، بينما يتعلق الأمر هنا بتقديم المعرَّف في جو ملائم للحجاج من دون أن نخدع المتلقي مع ذلك. والتطويع هو تعريف حجاجي يُقدَّم بوصفه تعريفا معياريا أو وصفيا يحمل المتلقي على تصديق أنه بهذه الصفة.

---

(1) Le Monde, 17 Novembre 2000.

(٢) – القلاع مرض ينجم عنه بثور في جلدة الفم أو اللسان، ويحدث حمى شديدة في الجسم.(المترجم)

(3) Le Monde, 6 Mars 2001.

(4) Le Monde, 1 Juillet 2003.

فبعض الخطباء، مثل المحامي جاك فيرجيس Jacques Vergès الذي غالبا ما يستعمل التطويع في مرافعاته أو أقواله، معتادون على حجة التعريف التي تشكل حقيقة دعما قويا في الغالب. وعندما سئل من قبل جان لوي رميـو Jean-Louis Remilleux من دون مجاملة ولكن باهتمام حول «تعاطفه مع الأشخاص الذين يضعون القنابل، [...] والتعاطف مع المجرمين»، أجاب: «لنتخلص من استبداد الكلمات. «الإرهابيون»، هكذا يُسَمَّى أصدقاء كارلوس Carlos. إنه لفظ من اختراع الألمان أثناء الاحتلال»(١). ولكن فيرجيس ينسى، ولا يعرف أن اللفظ كان مستعملا خلال الثورة الفرنسية.

ويضيف بعد ذلك: «الإرهاب هو السلاح الميئوس منه لرجال المقاومة المجردين من السلاح [...] فالاعتداء ليس فعلا ارتكبه مجنون من وحي اللحظة. الاعتداء هو تسوية تناقض ما، وصراع ما. إنه يطرح قضية سياسية. ذلك أن واضعي القنابل هم بالفعل واضعو الأسئلة»(٢).

يستدعي التعريف المقترح هنا، كما نراه، معجما يعيد تأطير المشكل في موقف معروف، أي موقف المقاومة خلال الحرب العالمية الثانية. وقد أضاف إلى ذلك تعريفا يجعل من المشكل فعلا «معقولا»، أي إنه يتعلق بأسباب يمكن البحث عنها أو توضيحها.

ونرى جيدا، من خلال هذه الأمثلة، ما يميز التعريف البلاغي من التعريف الذي يسعى إلى إنتاج المعرفة. يمكن أن يكون حقل التعريف واسعا، ويشمل أيضا «التعريف بما هو إنساني». في الجدال الذي قام حول الموت الرحيم لعديمي الدماغ (وهم الأطفال الذين ولدوا من دون جهاز عصبي مركزي ومن دون مخ)، استعملت صحيفة الجمعية الطبية الأمريكية مثل هذا التعريف لأجل تبرير نزع الأعضاء من هؤلاء الأطفال: «إن استعمال فاقد الدماغ حديث العهد بالولادة بوصفه مانحا حيا هو حالة استثنائية محدودة

(١) ١٩٩٢.
(٢) ١٩٩٢.

في القواعد العامة، مع الأخذ بعين الاعتبار وضع أن الطفل لم تكن له، ولن تكون له أبدا تجربة الوعي».[1]

إن استخدام التعريف معروف منذ أرسطو. وقد قُدِّمَ في التراث الكلاسي، على سبيل المثال في كتاب la Rhétorique à Herrenius ، بوصفه يحتضن «الخصائص النوعية لشيء بطريقة وجيزة وشاملة»[2]. لقد قُدِّمَ في هذا الكتاب بوصفه وجها أسلوبيا، من دون علاقة مباشرة بالاستدلال أو الدليل. وهكذا نجد « هذا الوجه البلاغي مفيدا لأنه يكشف عن المعنى وعن خصائص كل شيء بالوضوح والإيجاز الذي لا تنفع معه الزيادة في الألفاظ أو النقصان»[3].

ونرى في هذا النص بزوغ اهتمام أكثر معاصرة بالتعريف الموضوعي الذي تعد فيه البلاغة من دون شك المادة الخام. وفي هذا العصر، مع تقدم العلوم والمكانة التي أخذها الإعلام، ينبغي مراعاة عديد من أنواع التعريفات وفق السياق، وكلها تمتلك شرعيتها. فالتعريف الحجاجي يحتفظ بمكانته بجانب التعريف العلمي. ويخضع كلاهما لعقليات من طبيعة مختلفة.

التقديم

إن تقديم الوقائع بطريقة ترفع من بعض المظاهر وتنتقص من أخرى، هو شكل من التأطير الفعال على نحو خاص. فتقديم «قطاع التبغ» بوصفه «الصناعة الوحيدة التي لا تسحب منتوجا من السوق بعدما تأكد لها ضرره وخطورته»[4]، هو نعت للواقع يسمح بعزل بعض خصائصه. في هذه الحالة، كما في حالة هذا المنتخب من زيلاندا الجديدة

(١) ذكر من قبل Jean Yves Nau، Le Monde، ٧ يونيو ١٩٩٥.

(٢) الكتاب الرابع، ٣٥.

(٣) الكتاب الرابع، ٣٥.

(٤) Philippe Boucher ، مدير اللجنة الوطنية لمحاربة التدخين، مذكور من قبل Laurence Folléa، Le Monde ، ١٦ مارس ١٩٩٦.

Nouvelle-Zélande نيك سميث Nick Smith الذي صرَّح في تعليقه على القانون الذي يشرع للدعارة، أن «الدعارة ليست سوى اغتصاب مُؤَدًّى عنه»[1]، وبالطبع يمكن اقتراح تقديمات أخرى للموضوع نفسه.

يتضمن النعت أحيانا نوعا من التطور في المفاهيم المستعملة، كما في المثال المذكور من قبل المؤلف المجهول لكتاب La rhétorique à Herrenius: «أنتم لم تظهروا الشجاعة، ولكن أظهرتم التهور، لأن الشجاعة ترتكز على التهوين من التعب والخطر، مع الأخذ بالمنفعة بعين الاعتبار، وجعل المحاسن في الميزان، بينما يستلزم التهور مجابهة الأخطار بتقوية الألم من دون سبب مثلما يفعل المحارب»[2].

إن حد حجة النعت هي في وجوبها أن تحيل على تبرير مفترض انتُقي لتناسبه مع الحجاج الجاري، وليس مجرد إثبات مجاني.

يتميز النعت من التعريف، على الرغم من أن وضع الحدود بينهما ليس دائما أمرا سهلا. إن نعت الضمان الاجتماعي كما فعل جاك شيراك Jacques Chirac، هو بطريقة من الطرق وضع تعريف له: «الضمان الاجتماعي هو جزء من هوية فرنسا ومن تراث الفرنسيين. إن له مكانة في تاريخنا، مثلما له المكانة نفسها في حياتنا اليومية. فهو يعبر عن عبقريتنا الوطنية [...] أمام البطالة، وأمام الإقصاء، عندما تنفصم عرى الروابط العريقة للتضامن، فإنه يكون بحق المعقل الأخير ضد كل ما يمكنه أن يكون تراجعا للحضارة».[3]

التشبيه هو شكل من أشكال التقديم، بشرط أن تقام علاقة بين أطراف متقاربة تنتمي إلى العالم نفسها. وإذا لم تكن الحالة كذلك، فإننا سنكون بإزاء تماثل.

---

(1) Le Monde, 28 Juin 2003.

(٢) - La rhétorique à Herrenius، الكتاب الخامس، 35.

(٣) - خطاب في جامعة السوربون سنة ١٩٩٥ بمناسبة الذكرى الخمسينية للضمان الاجتماعي، Le Monde ٦ أكتوبر، ١٩٩٥.

إن حجة التسمية هي شكل من أشكال النعت. فمنح اسم جديد لشيء ما يعيد نعت مميزاته في بعض المناسبات. ويسوق واطزلاويك Watzlawick مثالا عن الموقف الذي واجهه طالليراند Talleyrand الديبلوماسي النبيه سنة ١٨١٤ حين كانت الجيوش البروسية Prussiens تحتل باريس. فهؤلاء الذين تشبعوا بروح الانتقام، يريدون تدمير جسر إيينا Iéna الذي يُذَكِّرُهُمْ اسمه بذكريات محزنة. فبدل أن يناقش بلا هدف أساس هذا القرار، أخذ طالليراند فورا مبادرة إعادة تسمية الجسر الذي أصبحت له، ابتداء من ذلك الوقت، تسمية جديدة: «جسر المدرسة العسكرية». إن إعادة التأطير هذه وضعت البروسيين في موقف حرج لأن ثقافتهم المقاوِمة لا ترضى كل الرضا عن تدمير جسر ذي تسمية عسكرية. وهكذا أنقذ الجسر وبقي صالحا لسكان باريس حتى اليوم. تنطوي حجة التسمية غالبا على إبداع لساني حقيقي. وهكذا أعاد جان بيير شوفينومان Jean-Pierre Chevènement تسمية الجهوية، التي لم يكن يحبها، مستعملا «la Landérisation»[1] في فرنسا... وهذا تراجع تاريخي وأخلاقي في الوقت نفسه»[2].

التفخيم

يذكر بيرلمان أنه، «لأجلِ خلق الحضور، من الضروري الإلحاح طويلا على بعض العناصر التي لا تكون مُؤكدة: وذلك بتمديد الانتباه الذي نوليه إليها، فنكثف من حضورها في وعي المتلقين [...] فالإلحاح يمكن أنِ ينجم عن التكرار، وعن تراكم التفاصيل، وعن إبراز بعض المقاطع [...]؛ لقد اصطُلح، في النظرية البلاغية، على هذه التقنية التي تقوم على تطوير موضوع، باسم التفخيم. يتعلق الأمر بوجه من وجوه البلاغة يستعمل تقسيم الكل إلى أجزائه بقصد خلق الحضور»[3]. تشكل حجة التفخيم شكلا مقنعا جدا من أشكال تقديم الواقع؛ إنها شكل حاد للوصف الحجاجي.

---

(١)- نسبة إلى إقليم Les Landes بجنوب غرب فرنسا. (المترجم)

(2) Le monde, 24 Novembre 2000.

(٣) - ١٩٨٨، ص ٥١-٥٢.

وتتشكل هذه الحجة غالبا في شكل «قائمة»، كما هو الحال في وجهة نظر باسكال بروكنر Pascal Bruckner، وأندري جلوكشمان، و رومان جوبيلRomain Goupil، حول «الخطإ» الذي مثلته معارضة التدخل الأمريكي في العراق، إذ تحدثوا عن حرب الخليج الثانية كما لو كان الأمر يتعلق بـ «كشف عظيم» «كتنامي العداء نحو السامية، والحقد العرقي، والأزمة الاقتصادية والاجتماعية، وانتهاك حرمة مقبرة عسكرية بريطانية، وضرب اليهود والمعارضين العراقيين خلال المسيرات «السلمية» الكبرى، والتحالف من الخلف مع فلاديمير بوطين Vladimir Poutine قتّال الشيشانيين، واستقبال الطاغية الإفريقي المستبد روبير موجاب Robert Mugabe في باريس، والشتائم العمومية الموجهة لبلدان أوروبا الشرقية التي أذنبت حين لم تطعنا بشكل تام، فأمتنا العظيمة ليست بصدد كتابة إحدى صفحاتها الأكثر مجدا».[1]

وفي السياق نفسه، عمد آلان جوبّي Alain Juppé الوزير الأول إلى رسم صورة شخصية آلان مادلان Alain Madelin، الذي استقال من منصبه الوزاري، وهي مجاملة يُسْتَنْبَطُ منها نقد (دون أن يُفقدها فائدتها) «يجب التحلي بالحدة ولكن أيضا بالاتساق؛ وبالحدة ولكن أيضا بضبط النفس؛ وبالحماسة ولكن أيضا بالعناد؛ وبالطموح ولكن أيضا بالتواضع؛ وبالخيال ولكن أيضا بالنفعية. هذه عقيدتي في كل الحالات، وهذه فلسفتي في التغيير. هناك صفات أخرى يمكن إضافتها. ولكن بالنسبة إلي اخترت هذه»[2].

تعد هذه الحجة من جهة أخرى، في الاصطلاح البلاغي الدقيق «مراعاة النظير»[3]

---

(1) Le Monde, 14 Avril 2003.

(2) Le Monde, 29 Août 1995.

(٣) المقصود بمراعاة النظير: «جمع كلمات أو عبارات متناسبة، بحيث يقوّى المعنى لكل منها بمعاني الكلمات أو العبارات الأخرى»، مجدي وهبة، معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، ص. 86. Une congérie: يحدد بيرلمان هذه الصورة على النحو الآتي: «نبدأ في تعداد الأجزاء لنصل إلى تركيب، وهي عكس التفخيم الذي يعتمد على تقسيم الكل إلى أجزائه».

انظر Chaim Perelman, l'empire rhétorique, librarie philosophique, J.Vrin, 2009, p. 60.

une congérie؛ أي التنويع المعكوس للتفخيم: «نبدأ بعدِّ الأجزاء وننتهي منها بتركيب».(١)

التكرار

يستعمل التقديم كذلك التكرار l'expolition، الذي سبق أن أبرز قيمته منذ القدم مؤلف كتاب La rhétorique à Herrenius ، وهو «يقوم على التعبير عن الموضوع الواحد بأفكار مختلفة. ويستعمل بطريقتين: إما أننا نكرر ببساطة الشيء نفسه، وإما أننا نتكلم عن الشيء نفسه»(٢). وليس هذا التكرار مجرد تقنية أسلوبية، فهو طريقة في تقديم أطروحة تسمح بإنتاج تأثير البروز، ورؤية الفكرة الواحدة من زوايا عديدة، باختصار إنها طريقة لتأطير الأطروحة. هذه الحجة لها أيضا بعد تربوي أساس، لأنها تكرار المعنى نفسه بأشكال مختلفة، ويسمح هكذا بفهم جيد من دون أن يؤدي ذلك إلى الخمول. فالتكرار قلما يكون مفردا، إنه يصلح غالبا للربط بين حجج أخرى تسهم، مجتمعة في حزمة، في اختلاق رؤية شاملة.

وهكذا إذا أردتُ أن أُقنع أحدا بعدم تناول المخدرات، أستطيع أن أستحضر «جحيم الإدمان: فمخدر الهيروين يقيد الذين يتعاطونه بانتظام، ويُفقدهم الإرادة. إننا نخضع كليا إلى سلطانه، فهو الذي يحكم ، ولا يمكننا قط أن نستغني عنه».

إن معنى كل عبارة من هذه العبارات هو نفسه بصفة كلية؛ فبعض الألفاظ مترادفات، وبعضها الآخر يستند إلى استعارات تبنى هي نفسها على اتفاق مسبق (أهوال الجحيم). ولكنها مجتمعة ترسم رؤية كلية للواقع الذي يمتلك كل الحظوظ لكي يتردد في عقل بعض المخاطبين الذين لم يتخيلوا، من دون شك، كل ما ينطوي عليه لفظ «الإدمان» الذي وُضع في متناول المتخيل. على هذا النحو، تتغير صورة «الإدمان»، و«يعاد عرضها

---

(١) Perelman، ١٩٨٨، ص. ٥١-٥٢.

(٢) - الكتاب الرابع، ص ٥٤.

بطريقة أكثر حيوية وأكثر وضوحا» مستندة إلى اتفاق مسبق ينتج عنه بسهولة الرأي الذي يقول إنه لا يجب تناول المخدرات. والملاحظ أن هذا المثال يوافق متلقيا يتأثر لتطبيق الإرادة، ولكنه أقل توافقا مع الرأي الذي لا يجعل منها فضيلة أولية.

قلب العبارة

إن هذا الوجه الأسلوبي الذي يرتكز على قلب عبارتين متقابلتين بشكل تعادلي. كقول باسكال Pascal: «لا نستطيع أن نجعل من العدل قوة، لقد جعلنا من القوة عدلا»، يمكن أن يستعمل لدعم الوصف الحجاجي. يقول لنا روبير بادانطير Robert Badinter مقترحا إطلاق سراح موريس بابون Maurice Papon «يقال: «جريمة ضد الإنسانية»»، «سأقول: إن هناك لحظة يجب أن تنتصر فيها الإنسانية على الجريمة»[1]، مستعملا هكذا وسائل وَصْفٍ يُختار منها ما يمنح الامتياز للفظ من الألفاظ بدل لفظ آخر.

يقترح هذا الوجه البلاغي قلبا للأولويات، وهو ما نجده في كثير من نماذج قلب العبارات الحجاجية. وهكذا يمكن أن يُفَعِّلَ القلبُ تقابلا بين العبارات، بقصد إزاحة أحدهما لإبراز الآخر. في احتجاجها ضد ارتداء «الحجاب الإسلامي» في المدرسة، أكد كل من روجي سانتش Roger Sanchez وجان-كلود سانطانا Jean Claude Santana رفضهما لـ «مدرسة ذات حق في الاختلاف والتي تخفي في الحقيقة اختلافا في الحقوق، ولاسيما حقوق المرأة».[2] ويمكن ألا يعرى قلب العبارة عن السخرية الحجاجية، مثال ذلك عندما تخيلت طالبة جامعية من طهران، ظلت مجهولة الهوية على سبيل الحذر، أنه: «يمكننا أن نعود يوما إلى أزمنة ما قبل الثورة: خلال حكم الشاه، كنا نشرب الخمر في الخارج ونعبد الله في الداخل. وقد أرغمنا أئمة الشيعة les Mollahs

---

(1) Le Monde, 13 Janvier 2001.

(2) Le Monde, 22 Mai 2003.

على أن نشرب الخمر في الداخل، ونعبد الله في الخارج»[1]. بعض نماذج قلب العبارة تسعى إلى أن تصير مواضع مشتركة ووجوها بلاغية مفروضة (أي حجج الاشتراك)، مثل عبارات عديدة «قوة الحجج بدل حجج القوة» أو «حق القوة بدل قوة الحق.»

حجة السيادة

إن حجة التأطير غنية ومتنوعة. يمكنها أن تستند مثلا إلى استراتيجية التقديم التي تتمثل في أن تبين للمتلقي أنه لم ير كل حمولة إحدى وجهات النظر التي يتعلق بها بقوة. وبتمديد حمولة وجهة النظر هاته، يتمكن من احتواء الرأي الذي نقترحه عليه. فحجة السيادة تتعلق هنا بهذا الوصف الخاص الذي يفخم وينمي حمولة مظهر من مظاهره. إنها ترتكز على اعتبار أن المتلقي الذي نريد إقناعه، هو «السيد» على الوضع المعطى وأن يستنتج من هذه السيادة إمكانية أن تحتوي أيضا الحجة المقترحة.

وهذا يفترض أن المتلقي لم يفكر من قبل وعند الاقتضاء أن استدعاء قدرته يرغمه على قبول أطروحة لا يتفق معها بالضرورة. وتستعمل غالبا هذه الحجة في سياق درامي تهيمن عليه القوة. ويوضح مشهد من فيلم «قائمة شيندلر» La Liste de Schindler[2] جيدا هذه الحالة في استدعاء القدرة من الذي نريد إقناعه[3]. فالبنية الحجاجية نفسها تشكل القوة الدرامية للمشهد الأول من الفيلم الأمريكي Grand Canynon[4]. تعطلت سيارة شاب بورجوازي أبيض من نوع مرسيديس، ذات لون أحمر زاه، في شارع بحي فقير من أحياء مدينة لوس أنجلس. قرر خمسة أفراد من عصابة شريرة كانوا يمرون من هناك سلبه والاستيلاء على سيارته. وفي أثناء ذلك، استُدعي مصلح

---

(1) Le Monde, 2930- Juin 2003.

(٢) -فيلم أمريكي يحكي قصة Oskar Schindler الذي أنقذ ما يقارب ٢٠٠٠ يهودي بولندي من القتل في المحرقة إبان الحرب العالمية الثانية. (المترجم)

(٣) انظر الفصل الثالث.

(٤) -فيلم الدراما الأمريكي، كتبه وأنتجه Lawrance Kasdan. (المترجم)

سيارات عجوز، أسود اللون، من أبناء الحي الذي قرر إقناع أفراد العصابة «تركه يقوم بعمله وأخذ السيارة».

إن الاستراتيجية الحجاجية للعجوز في هذا الموقف الذي لا أمل فيه، هي إذن الآتية: في البداية يطلب مخاطبة «الزعيم» وليس مجموع الرجال الحاضرين من رجال العصابة، ثم يطلب منه أن يدلي بدلائل قوته (مثال ذلك أن هذا الشارع يوجد ضمن حدوده، وأنه يتوفر على سلاح، وأن رجاله يطيعونه فعلا، وأنه يستطيع، في النهاية، أن يقرر «ما يشاء»)، وفي الأخير يشير له إلى أن الدليل الحقيقي لنفوذه يكمن في أخذ القرار الأبعد احتمالا وإذا شئنا فهو القرار الأقوى: أي أن يتركه يذهب بهذه الغنيمة الغالية المتمثلة في سيارة الميرسيديس. وبهذه المناسبة غير المنشودة لم يتردد زعيم العصابة في أن يبين فعلا أنه الزعيم، فأمر رجاله المذهولين أن يلوذوا بالفرار.

نرى جيدا كيف تعمل آلية الحجاج، في ما يشكل موقفا تواصليا حقيقيا. إنه يستند إلى التطابق والإلحاح على الاتفاق المسبق (ويتمثل هنا في أن المتلقي يمتلك سلطة حقيقية) كما يستند إلى بناء تأطير ينطلق من هذا الاتفاق المسبق.

الوصل

إن خلق «واقع جديد»، الذي هو في الواقع تأليف جديد للعناصر الموجودة سابقا، يتم الحصول عليه كذلك بواسطة استحداث تجميع وتقارب بين العناصر. وكما يقول واطزلاويك، «يشكل جمع «الأشياء» (بالمعنى الأكثر عمومية) العنصر الأكثر عمقا، والأكثر ضرورة لإدراكنا، ولمفهومنا للواقع».[1]

يلح بيير أليرون على أهمية «إقامة العلاقة» بين الوقائع والمواقف: «إن جزءا من النشاط العقلي يرتكز على إدراك أو إقامة تشابهات أو اتصالات بين الأشياء التي يتعاطاها. فهذه الأشياء لا تستطيع مع ذلك، في نظره، «أن تعرَّف بطريقة موضوعية

(١) ١٩٧٥، ص ٢٢.

تامة» وAالحجاج يقوم على هذا اللا تحديد النسبي»[1]. وسيحاول عالم الإجرام، ميشيل دوبيك Michel Dubec، خلال محاكمة موريس بابون Maurice Papon، أن يقيم وصلا (بهدف الحصول من دون شك على نعت قضائي مستحدث): «يوجد نوع من المجرمين نتعرفهم من خلال الخصائص الآتية: إنهم أذكياء، ومهذبون، وذوو مظهر لائق؛ إنهم يمارسون إغراء قويا، وخاصة، أنهم لا يملكون أي حقد تجاه ضحاياهم. إنهم يمارسون القتل بالتسلسل. وما يثير الاستغراب في مقاربتهم هي برودة اللقاء. فلم يمهدوا قط لهذا الحقد، ولم يعرفوا الإحساس بالذنب. طبعا... وسيكون من العبث اللجوء إلى اختزال المشاركة في الإبادة الجماعية إلى أصناف علم الإجرام. ولكنه ليس من المستحيل أن نفكر أن السبب الإجرامي عند كائن مثل قاتل المجموعة ثاو في كل منا، وأنه لا يمكنه أن يظهر إلا حسب صيغة إجرائية تنطوي على بعض القرابة مع الظروف الخاصة بالإبادة الجماعية. ليس للقاتل بالتسلسل علاقة شخصية بالضحية. إنه يميزها بواسطة علامة واحدة يمكنها أن تكون شعرا أشقر أو أي شيء آخر. فهو لا يكرهها لأنه ينزهها مسبقا عن أي صفة شخصية»[2].

يجب أن ينطلق الوصل لدى المتلقي من اتفاق مسبق واضح. وعندما لا يجد الطرف «الموصول» الذي يصلح للدعم سوى صدى قليل، فالحمولة الحجاجية للوصل تنقص. عندما يذكر روبير باندرو Robert Pandraud في الجدل القائم حول تعليم اللغة القبرصية، أنه «في أنظمة المدفعية لسنوات ١٩١٤-١٩١٨، عندما كان كثير من الجنود لا يتكلمون إلا اللغة العامية، فإن القيادة وجدت صعوبات وخيمة لتكون محل طاعة»[3]. لقد جازف بالاستناد إلى مرجعية ستظهر وكأنها قديمة جدا بالنسبة إلى قطاع كبير من المتلقين.

---

(١) - ١٩٩٣، ص. ٩٧-٩٨.

(2) Le Monde, 18 Novembre 1997.

(٣)- ندوة في المجمع الوطني بخصوص اللغة القبرصية ٢٨ مارس٢٠٠١، Le Monde ٣٠ مارس ٢٠٠١.

إن «التشابه بين وقائع، وإجراءات، ومؤسسات، ومساطر» يسمح كذلك، حسب أوليرون، بإظهار «القيم المشتركة الطبيعية»[1]. يسوق المؤلف مثال القتل الرحيم، الذي يمكن اعتباره «جريمة» أو عدم اعتباره كذلك (مما يقربنا من النعت الذي وقفنا عليه آنفا). بالنسبة إليه، يعد التقريب من دون قرينة «لغرض جوهري يتمثل في إحداث تأثير في المتلقي» «مزجا» لا صلة له بالاستدلال الحجاجي، فهو إجراء بنائي خالص.

وكما رأينا في فصل سابق، فإن «المزج» ليس نادرا. فالصعوبة تكمن في عدم وجود قطيعة واضحة بين الوصل الحجاجي وبين «المزج». إن المرور من أحدهما إلى الآخر يتم في فضاء متواصل حيث يصعب وضع الحدود. وإضافة إلى ذلك، فما يعد ببساطة وصلا غير شرعي ومن دون أساس عند طائفة من المتلقين، يمكنه أن يكون ذا تأثير تطويعي كبير على طائفة أخرى.

هكذا ، فإن الحديث، كما فعل كلود لانزمان Claude Lanzmann، عن «المصور العربي الذي يعمل في قناة فرنسية» في معرض الحديث عن طلال أبو رحمة، الموظف المحلي في مكتب فرنسا بإسرائيل، والذي كان قد صور مباشرة مقتل الطفل محمود في نيطزاريم Netzarim سنة ٢٠٠٠.[2] هل يتعلق الأمر بوصل مقنع لتحيز التحقيق الصحافي، أم هو مزج؟

وبالمقابل، فإن الوصل حول نموذج مألوف لليمين المتطرف، الذي قام به جاك بيرا Jacques Peyrat عمدة مدينة نيس Nice، بخصوص المتظاهرين ضد مؤتمر قمة نيس في خريف ٢٠٠٠، هو مزج بكل وضوح: «هؤلاء الناس الذين يسمموننا على طول الزمن، والذين لا يعملون، هؤلاء المتقاعسون، والكسالى، والمشاغبون، هؤلاء الثوار... إنها الطرائق نفسها، والأشخاص أنفسهم الذين قلبوا نظام ألمانيا النازية في

(١) -١٩٩٣، ص ١٠١.

(2) Le Monde, 2001.

سنة ١٩٣٦»[١]. إن عديدا من نماذج «المزج» تستعمل الوصل مع النازية للانتقاص من رأي أو شخص، مثال بن-أري يزيكييل، Ben-Ari Yézékiel في إطار الجدل حول النزاع في كوسوفو، سنة ١٩٩٩، حين قال إن «ريجي دوبري لا يحتاج أن ينتظر أربعين سنة لينكر الإبادة الجماعية»[٢]

الفصـــل

لأجل خلق عالم جديد، بقصد الحجاج، رأينا أهمية التعريف والتقديم. وعلى عكس تقنيات التقريب والوصل أو كل ما يصل بين العناصر، هناك تقنيات الفصل.

إن فصل المفاهيم هو منهج في تأطير الواقع يتيح، انطلاقا من مفهوم يحيل عادة على كون واحد، «كسر» وتوليد عالمين متميزين. وحيث لا يجد الرأي المقترح مكانا في البداية، فإنه بعد عملية الفصل، سيتوافق مع إحدى رؤى العالم المحصل عليها، وهذا هو الهدف المنشود. يرى بيرلمان في الفصل طريقة لبناء حجة فلسفية بالأساس، لاسيما انطلاقا من زوج «المظهر-الحقيقة» الذي «يُشَكِّلُ النموذج الأصلي لكل فصل مفهومي»[٣]. ويحق لنا أن نرى في هذه الحجة دلالة وحمولة واسعتين، يجعلها تستوعب جدالاتنا اليومية.

ويوضح جيدا مثال من المناقشات العنيفة حول «المخدرات» أحد الاستعمالات لتقنية الفصل. بالنسبة إلى طائفة من الناس، فإن المخدرات مفهوم كلي يشمل من دون تمييز، الحشيش، والكوكايين، والأنفيطامين، ول. س. د. [LSD]، والهيروين، إلخ. فأن يتعلق الأمر بمجموع واحد يؤسس حجة مألوفة تقضي بالمرور المعتاد من أحدهما إلى الآخر: «عندما ندخن مخدر الهاش، نمر إلى مخدر الهيروين». وبالنسبة إلى طائفة أخرى، يُفرض حتما التمييز بين «المخدرات القوية» و «المخدرات الخفيفة» (يرد الفصل مصحوبا من جهة أخرى بنعت: قوي/ خفيف، الذي يعوض مع ذلك بشكل سيئ

---

(1) Libération, 15 Décembre 2000.

(2) Le Monde , 22 Mai 1999.

(٣) - ١٩٧٠، ص ٥٦.

واقع أنه، على الرغم من الفصل، فإن لفظ «المخدرات» نفسه، يظل المرجع في الحالتين معا).

تستثني الطائفة الأولى الخمر والتبغ من حقل المخدرات، بينما تتفق الطائفة الثانية على إدراج هذين المنتوجين ضمن المخدرات وليس بالضرورة ضمن صنف «المخدرات الخفيفة». فالسلطات الهولندية نصَّبَتْ نفسها، كما نعرف، محاميا ضاريا لهذا الفصل بتحرير بيع المخدرات الخفيفة واستعمالها وملاحقة المخدرات القوية. في هذه الحالة يعد اختيار المفهوم الكلي أو الفصل اختيارا حجاجيا بالأساس، لأنه لا يستند إلى أي تصنيف علمي قابل للاستعمال في الفضاء العمومي.

تتيح حجة الفصل تكسير وحدة المفاهيم العقدية جدا، وتدخل مرونة أكبر لأجل أن تتحرك في الواقع. مثال ذلك حالة فصل مفهوم «الذاكرة» الذي يقترحه تزفيطان تودوروف Tzvetan Todorov في سياق مناقشة توصيل ذكرى الإبادة الجماعية التي ارتكبها النازيون ضد اليهود. يميز تودوروف بين «الذاكرة الحرفية» وبين «الذاكرة المَثَليَّة». تنطوي الذاكرة الأولى على أن الماضي المؤلم يكون «محفوظا في حرفيته»، إذ تترتب عليه مدّ «عواقب الجرح الأول إلى كل لحظات الوجود في الحاضر». بينما تنطوي الذاكرة الثانية على «فتح هذه الذكرى على التماثل وعلى التعميم» لأجل جعل الماضي «مبدأ التأثير في الحاضر». في هذه الحالة الأخيرة «أنا لا أسعى لتأكيد هويتي بقدر ما أسعى لتبرير تماثلاتي»[1]. إننا نرى هنا كيف يعيد الفصل تأطير قضية بتقسيمها إلى كونين.

وهذا ما قام به آلان مادلان عندما وصف بطريقته الليبرالية مشكل البطالة: «كم عدد العاطلين؟ هو أول سؤال طرحه على رؤساء المجالس البلدية الذين لقيهم. كم عدد الباحثين الحقيقيين عن العمل؟ هو السؤال الثاني الذي ورد على لسانه في النسق نفسه.»[2] ويمكن تقديم مثال مألوف في سجل المرافعات، حيث يتم السعي إلى فصل

---

(١) ١٩٩٥، ص.٣٠-٣١.

(٢)- مذكور من قبل Cécile Chambraud، Le Monde، ٧ أكتوبر ١٩٩٥.

الضحية عن الرمز الذي يمثله لأجل التقليل من مسئولية المجرم، ونلاحظ أقوال بيير آليساندري Pierre Alessandri أحد أعضاء الكوماندو الذي اغتال العمدة إيرينياك Erignac، والذي أكد أنه «إذا كان اختيار العمدة قد فرض نفسه، فقد كان من الأصعب قتله بوصفه إنسانا، لأن هذا يرغمنا على خرق القيم الأخلاقية. لقد كان عملنا بمثابة تجريد الضحية من شخصيتها. لقد رمنا رمزا وليس إنسانا. وجعلناه ضحية نكفر بها عن ذنبنا[1]».

ويمكن أن تحمل الحجة ، كما توضح نتيجة فحص طلب السراح المشروط لباتريك هنري Patrick Henry حيث كان الأستاذ ثيري ليفي Thierry Lévy قد اقترح فصلا حجاجيا، فإن الحجة يمكن أن تحمل مظهرا واحدا من المظهرين: «إن ملف باتريك هنري، بصفة استثنائية، ملف جيد ، ولدينا كل الأسباب الموضوعية لبلوغ الهدف إذا احترمت إرادة المشرع. ولكن توجد قضيتان لباتريك هنري: قضية الرجل الذي حُكم عليه بسبب القتل بالسجن منذ خمس وعشرين سنة، وقضية الرمز الإعلامي للمجرم الذي نجا بأعجوبة من عقوبة الإعدام. ليست هذه هي الحقيقة، وقد كان باتريك هنري سيطلق سراحه منذ مدة لو أن السلطة السياسية كانت مستقلة عن الرأي»[2]. يتضح هنا جليا أن الفصل يؤدي إلى اختيار حقيقي بين طرفين كانا حتى الآن ملتبسين، إذا كان مقبولا من المتلقي.

إن استعمال الفصل يكون دائما، بالطبع، قابلا للنقاش. هل يمكن أن نحاكم أعمال الفيلسوف هيدجر Heidegger بحجة أنه كان متواطئا مع النازيين قبل وأثنائها الحرب، وأنه لم يتب عن ذلك فيما بعد؟ يحيل هذا السؤال على الفصل الممكن بين الرجل وعمله، وهو موضوع أكثر عمومية.

من المعروف أن ثقافتنا تنظر إلى الإنسان بوصفه كُلاًّ وأن ثمة انسجاما بينه وبين

---

(1) Le Monde, 18 Juin 2003.

(2) Le Monde, 31 Mars 2001.

عمله. فالذين يثنون على الفلسفة الهيدجيرية، مع عدم اتفاقهم مع الالتزام السياسي للرجل، قاموا بتفعيل مثل هذا الفصل لأجل إعادة تأطير الواقع. وآخرون يمكنهم أن يجدوا، على كل حال، أن العمل موسوم بالاختيارات الإيديولوجية لصاحبه. فالرجل وعمله يشكلان من هذا المنظور وحدة لا تنفصل.

على الرغم من أن حجاج التأطير أكثر صعوبة في الاستعمال من الصنفين الآخرين (الحجاج بالقيم أو الحجاج بالسلطة) فإنه يعد وسيلة حجاجية قوية. فبالنسبة إلى أرسطو، يشكل التعريف، والفصل، والربط، والتفخيم، وكل حجج التأطير كما نعتناها في هذا الكتاب، وسائل بلاغية لما كان يسميه بـ «النبرة النبيلة»[1]. إن استعمال هذه الحجج يحشد الذهن بشكل واسع سواء في سرعته أو انفتاحه.

الحجة شبه المنطقية

ونصل إلى آخر تنويع في قائمة حجج التأطير غير الشاملة بالتأكيد، وهو المتعلق «بحجج شبه المنطقية» (بيرلمان). إنها تستعمل استدلالا قريبا من الاستدلال العلمي، مما يجعل تميزها أحيانا عن الاستدلال صعبا. ويذكرنا بيرلمان أنه، في القديم، «عندما كان التفكير العلمي ذو الصبغة الرياضية أقل تطورا، كان اللجوء إلى الحجج شبه المنطقية أكثر تواترا»[2]. أما اليوم، فإنه يمكننا تمييزها بوضوح من الكون المنطقي الذي تستلهمه.

شبه البرهان. بينما يصلح البرهان المنطقي لكل الحالات، فإن الحجاج شبه المنطقي يحتمل بطبيعته استثناءات واسعة جدا. فهو احتمالي يستند إلى الخصائص المفترضة للتعدية والتطابق والتقسيم.

يؤكد المثل الاستراتيجي: «أعْدَاءُ أعدائي، أصدقائي» الذي يريد الإقناع، بأنه

---

(١) - ١٩٧٣، ١٤٠٧ب و١٤٠٧أ.
(٢) - ١٩٨٨، ص ٦٩.

من الأفضل أن نتحالف مع من يعارضون أعداءنا. هل كان من اللازم على الحلفاء: الولايات المتحدة، وإنجلترا، أن يطوروا روابط الصداقة مع الاتحاد السوفييتي خلال الحرب العالمية؟ وهل كانت معارضة هذه الدول لألمانيا النازية تشكل مصلحة مشتركة قوية بصفة كافية؟ إننا نعرف أن السوفييت أخذوا على الحلفاء بمرارة كبيرة تركهم يقومون بالعمل الأكبر: (القضاء على مقاومة جيش هتلر)، الأمر الذي ترتبت عليه خسائر وتضحيات جسام، قبل تدخلهم هم أنفسهم، جاعلين الصداقة على هذا النحو نسبية في مثل هذا السياق. ومهما يكن، فإن هذه السلسلة المنطقية من العلاقات مُقْنِعَة بشكل شامل.

الفصل السابع

حجج التماثل

ترتكز حجة التماثل على إقامة تماثل بين منطقتين متباعدتين من الواقع يسمح بنقل خصائص إحداهما المعروفة إلى الأخرى. يستعمل أرسطو مثالا مهما جدا (ومعاصرًا جدا) عن التماثل في كتابه «الخطابة». يشكو الفيلسوف بالفعل من الطريقة المتبعة في النظام القضائي اليوناني حيث كان القضاة المسئولون عن إصدار الأحكام يُنْتَقَون بالاقتراع. «ينبغي ألا يتم اختيار القضاة عن طريق القرعة: إنه بالفعل مِثْلَ اختيار الرياضيين بواسطة القرعة، حيث لا نختار ذوي الكفاءات الجسدية للتنافس، بل أولئك الذين حالفهم الحظ؛ أو أكثر من ذلك مثل ما نختار بواسطة القرعة البَحَّار الذي يجب أن يقود السفينة»[1].

نعرف أنها الحالة السائدة حتى يومنا هذا في فرنسا بالنسبة إلى المحاكمات الجنائية. يدافع أرسطو إذن لأجل أن يتم اختيار القضاة بناء على كفاءاتهم، وليس بناء على المصادفة. وكما نرى ، فإن الحجة لا تفتقر إلى الأهمية. ولأجل أن تعمل الحجة، ينبغي أن يكون الطرف الخارجي المقترح لتكوين التماثل مقبولا مسبقا من المتلقي، وأن يكون حوله اتفاق مسبق. فقولنا: «كن خبيرا بالخطط الحربية مثل ما كان نابليون» يكاد

(١) - Aristote ، الكتاب الثاني، ١٩٩٣ب.

يكون أمرا من دون فعالية على من يعتبر أن الرجل كان ديكتاتورا مقيتا اكتسح جزءا من أوروبا. لن نجادل أنه يجب أن يكون خبيرا في الحرب، أو أنه كان كذلك، ولكن المثال يقترح تقاربا غير ملائم بالتأكيد ويتعرض إلى أن يكون غير مثمر (وبرفضنا أن «نكون» نابليون، سنرفض أن نكون خبراء بالخطط الحربية، وهو الأمر الذي كنا مع ذلك مدعوين له...).

وهنا يقتضي الأمر اتفاقا ثانيا من لدن المتلقي وهو ما يشكل خصوصية هذه الحجة، أي يستوجب على المتلقي قبول مد جسر بين الطرفين المقترحين. يتميز التماثل في الواقع عن التشبيه (حجة التأطير) الذي يفترض تطابقا بين المشبه والمشبه به. ففي التماثل بمعناه الدقيق، لا توجد أية علاقة بين الأطراف.

ولكن في الوقت نفسه، يتعلق الأمر باستدلال يعمل على ربط منطقتين من الواقع. الأولى تكون موضوع اتفاق مسبق، والثانية تتشكل بواسطة الرأي المقترح للإذعان. هنا، نفترض بل نبتدع رابطا بين المنطقتين.

هكذا، إذا كنت أعضِّد القول «بإمكان كل الناس في أمريكا اكتساب ثروة»، أستطيع لأجل الإقناع، استعمال الحجة بالمثال التي تنص هنا على أن بيل جايط Bill Gates (الذي يمثل إحدى أكبر الثروات الأمريكية) أو سطيف جوبس Stev Jobs «هما شخصان شابان انطلقا من لا شيء وأصبحا الآن من أصحاب المليارات».

ويمثل كل من بيل جايط وسطيف جوبس هنا مثالين بالإمكان تعميمهما (الأمر الذي لا يعني أن كل الناس سيصبحون من أصحاب المليارات، ولكن يعني أن كل الناس يمكنهم أن يصبحوا كذلك، وهو ليس الشيء نفسه). في الوهلة الأولى، نستدعي حدثا معروفا (هذان الرجلان من أصحاب المليارات) ثم نضعه في «مقدمة التعميم». إن كونهما من أصحاب المليارات، يفيد أن الحجة تستلزم القول بأن ما قاما به يمكن أن يقوم به الآخرون. فخلف جايط وجوبس، يكمن كل أمريكي هو ميلياردير بالقوة. تعمل الحجة بالمثال على استخدام تماثل (بالمعنى الواسع) بين «كل الناس في أمريكا» وبين شخصين (جايط وجوبس) ارتقيا إلى رتبة النماذج.

فالرابط المنسوج هنا بين كل أمريكي وهذين الشخصين بصفة خاصة لا يتعلق باستنباط، ولكن يتعلق الأمر بالأحرى بجسر فوق هوَّة تفصل هاتين الشخصيتين عن كل أمريكي آخر. ولكنهما تحظيان «بشيء ما» يقيم تماثلا، خفيا ولكنه معروف من المتلقي، بينهما وبين كل أمريكي. حتى الآن، يمكننا أن نقول إن نوعا آخر من الاتفاق المسبق ينبثق هنا. بالتأكيد، ولكن هذا الاتفاق ليس ظاهرا في الاستدلال الحجاجي، ولا ينبغي له أن يكون كذلك حتى لا يقتل التماثل وقدرته على الإقناع. إننا هنا في فضاء غير متصل، حيث يتوسل الكلام بقفزة يعجز أحيانا عن البرهنة عليها بشكل واضح. إن الجسر الممتد بين منطقتين لا يجد مسوِّغه على هذا النحو إلا لأنه يتيح المرور من ضفة إلى أخرى.

خصوصية التماثل

إن التماثل مشابهة تأخذ قوتها من غرابتها المتبادلة. فهل يتعارض التماثل مع العقل؟ لا، إلا إذا خلطنا بين الغرابة واللاعقل، وبين النفق وجهنم. إن خطوط التشابه الخفية التي تغذي التماثلات، تستمد من موارد لغتنا وثقافتنا، المعاني المشتركة التي تجمعنا والتي تكوِّن أحد الأسس الأكثر متانة.

ويجرنا هذا -على المستوى التقني- إلى إجراء تمييز في عمليات التماثل بين عدة أصناف من الحجج: التماثل بمعناه الدقيق، والمثال، والاستعارة. والملاحظ فورا، ولاسيما بخصوص التماثل والاستعارة، أن الأمر لا يخص وجوها بلاغية تحمل الاسم نفسه، والتي لها وظيفة التعبير الأدبي أو الشعري المتميزة بوضوح من الآلية الحجاجية التي تميز هنا هذه الوجوه. ولا تعنينا الاستعارة هنا إلا عندما تأخذ وضعا إقناعيا.

وفضلا عن ذلك، نستعمل هنا لفظ «متماثل» بالمعنى الواسع جدا. فهو يصلح للإشارة إلى أن الرأي الذي نروم الدفاع عنه يمكن أن يوضع «في علاقة» مع رأي، أو حقيقة، مقبولين من المتلقي (تقليديا يشار بلفظ «الموضوع» إلى الرأي الذي ندافع عنه،

وبلفظ الحامل إلى حقيقة التشبيه). في التعبير الآتي: «إنه قوي مثل هرقل»، الموضوع هو القوة المفترضة لشخص، والحامل هو قوة هرقل المعترف بها من قبل الجميع.

يعد هذا التعبير في ذاته أدبيا أكثر منه حجاجيا لأنه لا يمدنا بالغرض من عقد هذه المشابهة بين هذا الشخص وهرقل. بيد أن استعماله في سياق ملائم؛ أي شخص قوي العضلات، ذي جسد رياضي، وينال في النهاية حظوة مثل تحفة فنية قديمة، يمكنه أن يقترح علينا تماثلا لا يخلو من أساس يقوم عليه: يوجد بالفعل «جنس هرقلي» ينتمي إليه هذا الشخص، وهذا الانتماء يقنعنا بقوته.

الاستعارة

ليست كل التماثلات حججا لأنها ليست كلها في خدمة الدفاع عن الرأي. هكذا، فالتنصيص على أن «ما تمثله الشيخوخة بالنسبة إلى الحياة هو ما يمثله المساء بالنسبة إلى النهار»، هي صيغة جميلة جدا وليست حجة. فنحن كلنا متفقون بالفعل على أن الشيخوخة هي نهاية الحياة، أو أن المساء هو آخر النهار. فهذا التماثل المكثف يمنحنا للحديث عن الشيخوخة، الاستعارة الآتية: «مساء الحياة»، ولكن ما زلنا هنا داخل الأدب أو داخل الشعر، وليس داخل حقل الحجاج، حيث نتساءل باستمرار: ما هو غرض الإقناع؟

إن الاستعارة، وهي إضمار للتماثل، يمكنها أن تكون حجة، عندما تخدم الإقناع. هكذا، عندما نقول لشخص ما «يا له من حمار !» يفترض تماثلا بين السلوك المستهدف للحمار (وهو ما يمكن أن يلاحظه الجميع) وسلوك شخص لا يتسم بالذكاء أو الانفتاح.

ترتكز لطافة الحجج التماثلية على أنها لا تقترح تطابقا أبدا. فحين نقول لشخص ما إنه «هرقل حقيقي» لا يتضمن بالطبع إلا تقاربا استعاريا. على هذا النحو فنحن محميون، في الوقت نفسه، من التطابق المستحيل ومدعوون لرصد التشابه والتقارب.

تتميز الاستعارة عن المثال بحرية أوسع في الإيحاء؛ فهي تسمح بتشابهات خفية تغترف أحيانا من أعماق وجودنا وثقافتنا. فآريان منوشكين Ariane Mnouchkine المعادية لإضراب العاملين بالتناوب الذي أدى إلى إلغاء عديد من المهرجانات الثقافية خلال صيف ٢٠٠٣ بفرنسا، لم تتردد في التصريح: «من واجبي أن أقول لكم إنني طالما أحببت شيئا آخر غير هذا التدمير الذاتي، وغير هذا الحطب الذي تكوّمُونه»[1].

تقول لنا نانين شاربونيل Nanine Charbonnel، إن الاستعارة تتيح لنا مواجهة «المشكل الكبير للذات وللآخر، للمشابهة والتطابق. إنها نقطة ارتباط، في اللغة (بوصفها استعارة في حد ذاتها) وفي الفكر (بوصفه ظاهرة التماثل)، القضية التي تبدو لنا، ولبعض الناس، جوهر الإنسانية: أي المحاكاة»[2].

ليست الاستعارة، كما رأينا دائما حجة. إننا نعرف أنها وجه أسلوبي متين، تستعمل بشكل واسع في التعبير الجاري مثلما تستعمل كثيرا في الأدب. كيف نميز بين الاستعارة الأدبية وبين الحجاج بالاستعارة؟ تبدو الأشياء ظاهريا بسيطة: الاستعارة حجة عندما تستخدم في الدفاع عن أطروحة أو عن رأي. هكذا، عندما نتكلم عن «مساء الحياة» للإشارة إلى الشيخوخة، فإننا نكون في عالم الأدب.

لكي يحاجج بيرتران بوارو-ديلبيش Bertrand Poirot-Delpech عن صعوبات سير المحكمة الجنائية الدولية في قضية يوغوسلافيا (سابقا)(TPIY) ، تحدث عن «كلابشات عقلية» بخصوص الوسائل السمعية المستخدمة في الترجمة الفورية («إذا كان حقيقة أن كل القرارات الدولية تؤخذ من الآن بمساعدة الترجمات الفورية، ماذا نقول عن عدالة تمر عبر مصفاة الوسائل السمعية، هذه الكلابشات العقلية؟»[3]. فالوجه البلاغي، الذي يمكن أن يكون أدبيا، هو هنا موسوم بحمولة حجاجية واسعة.

---

(1) Le Monde. 4 Juillet 2003

(٢) -١٩٩١، ص. ٢٤.

(3) Le Monde, 16 Mai 2001.

وعلى المنوال نفسه، استعمل إريك فوطورينو Eric Foottorino استعارة «النخاسة الثانية» لأجل إقناعنا أننا غير راضين عن انتشار مرض السيدا في أفريقيا الذي يصيب الشباب والشابات بكثرة. ويضيف قائلا: «مثل أفريقيا التي نقتلعها من قارة أفريقيا»[١]. تفترض الحجة أن معاملة العبيد خلال قرنين على الأقل والذي مثَّل جرحا لا مثيل له في تاريخ هذه المنطقة، وحرم أفريقيا لمدة طويلة من قواتها الحية ومن كل إمكانيات التقدم، كان أمرا معروفا مسبقا، وقد قام الأنتروبولوجيون بتوضيحه أمثال: جورج بالانديي Georges balandier.

إن البحث عن تماثل لأجل الحصول على الإذعان، وشكله الأقصى المتمثل في الاستعارة يحتمل أن يكون أكثر هشاشة وأكثر قوة في الاستدلالات الحجاجية.

وكما يلاحظ فيليبير سيكريطان، Philibert Secretan «يتميز التماثل حينئذ بواسطة تأرجح تكويني بين المشابهة التي يدل عليها، وبين الاختلاف الذي يتخطاه من دون أن يختصره مع ذلك»[٢].

وتستمد الاستعارة ، مثل التماثل، قوتها من جدَّتها . فحين تتكرر تضعف، وتتوارى، أو تصبح موضعا مشتركا، و«حجة الاشتراك». مثال ذلك هذه الاستعارة التي استعملها روبير-أندري فيفيان Robert-André Vivien، في انتقاده نيكولا ساركوزي، وزير التواصل، خلال جدال في المجمع الوطني بمناسبة إضراب الصحافيين في الإذاعة العمومية، متسائلا «هل يوجد ربان في طائرة السمعي البصري العمومي؟»[٣]. وعلى الرغم من أن الصيغ المسكوكة تكون في البداية تماثلا جيدا، فإنها معرضة لأن تفقد شيئا فشيئا مفعولها الحجاجي، مثل الصيغة الشائعة جدا «جنود الواجهة»[٤]. هكذا تشير الإعلامية الفرنسية جونيفيف جيشوني Genevieve guicheney التي

---

(1) Le Monde, 10 Novembre 1994.

(٢) ١٩٨٤، ص. ٧.

(٣) -مذكور من قبل Le Monde, Alain Salles، ٣٠-٣١ أكتوبر ١٩٩٤.

(4) «Chair à canon »

تعمل في التلفزيون الفرنسي والعضو السابق في المجلس الأعلى للفضاء السمعي-البصري، بخصوص برنامج اللعب Loft Story[١] أن «القضيـــــة المثارة هي توظيف الأفراد العاديين لتغذية برامج التلفزيون التي تجعل منهم نوعا من جنود الواجهة الإعلامية».[٢]

فالاستعارة التي تعد تكثيفا للتماثل تصبح عرضة سهلة للمزج، مثال ذلك عندما قال بن-أري ييزيكييل Ben_Ari Yézékiel إنه: «مع مأساة البوسنة، فهم الرأي العام أن ميلوشيفيك Milosevic كانت له حقا نية إنجاز طموحه المتمثل في «صيربيا العظمى» Islamenfrei[٣]. فالتماثل مع النظام النازي خطير بشكل كاف لكي يكون أكثر تفصيلا ولا يكون مستعملا في سياق النقد اللاذع.

التماثل بمعناه الدقيق

يذكرنا روبول أن الاستدلال بالتماثل هو «بناء بنية الواقع» بفضل «تشابه العلاقات» كما في المثال الكلاسي الذي يقول «إن الأب بالنسبة إلى الابن هو الله بالنسبة إلى الإنسان» حيث نفترض أن ثمة اتفاقا مسبقا حول الروابط التي يجب أن يقيمها الإنسان مع الله: وهي الاحترام، والطاعة، والاعتراف بالسلطة (نضع أنفسنا طبعا في سياق متلق خاص). ما نريد أن نوضحه هنا أن الابن يجب أن يدين بعواطف مماثلة لأبيه. إننا «نتجاوز» إذن الفرق في المواقف لاقتراح رابط قوي وعميق بين العلاقتين.

فالْكَتَبَةُ الذين استلهموا الإنجيل القديم، يستعملون غالبا تماثلات مع العمل التقني للخزفي لأجل إقناع قرائهم بأن الله خلق الإنسان حقا (وهو ما لم يكن أمرا مسلما به في ذلك العصر). لقد صنع الله الإنسان من الصَّلْصَال مثل ما يصنع الصانع

(١) برنامج تلفزيوني كان يبث في إحدى قنوات التلفزيون الفرنسية. (المترجم)

(2) Le Monde, 16 Mai 2001.

(3)-Le Monde, 22 Mai 1999.

جرة من الطين. فالحامل هنا هو تلك الحقيقة المعروفة والمقبولة، والتي يكون الخلق وفقا لها صنعا من مادة لينة حسب تصميم محدد ولكن أيضا في مواجهة مع المحسوس. إن الحامل هو علاقة الصانع بصنيعته. والموضوع هو ما نريد أن نقنع به، وهو وجود علاقة مماثلة بين المخلوق وخالقه.

للتماثل قدرة على إثارة الخيال، وإحداث تأثير المفاجأة، فهو الوسيلة التي تحمل على الاقتناع. على هذا النحو، اقترح عضو الكونجرس الأمريكي ماجور أوينس Major Owens، في مناهضته للعنف في التلفزيون وفي تذكيره بفتى أمريكي شاهد في مرحلة التعليم الابتدائي ثمانية آلاف جريمة قتل، ما يأتي: «إذا كان الأمر يتعلق بثمانية آلاف علاقة جنسية، فإننا سنوقف العمل بالتلفزيون».[1] يتعلق الاتفاق المسبق هنا، بنوع خاص، بشريحة من الرأي العام الأمريكي المعروفة بالاحتشام (قال شخص ذات يوم، إنه كان من المقبول في الولاية المتحدة مشاهدة يد في فيلم تقطع ثديا، ولكن لم يكن مقبولا مشاهدتها وهي تداعبه...).

فالتماثلات الأكثر فعالية هي التي تبحث عن الحامل البعيد والقريب في الوقت نفسه. وهكذا دعم روني لواي René Louaille ممثل الكونفدرالية الفلاحية في شواطئ آرمور قوله إن «الدقيق الحيواني بالنسبة إلى إنتاج الألبان هو ما يمثله L'EPO بالنسبة إلى رياضة الدراجات. أنا لا أستبعد أن صانعا قليل الدقة كان قد استعمل عن تَبَصُّر، الدقيق الحيواني في تغذية البقر بعد سنة ١٩٩٠».[2] وثمة تماثل، أكثر قربا ولكنه أكثر أدبية إلى حد ما، قدمه إيريك دوبان Eric Dupin بين جنون البقر وحالة الرأي حول هذا الموضوع: «إن المبدأ المشهور للحيطة» لا يخلو من أخطار. ولكونه ملائما لكل الطرق، فهو حامل لنوع من الديموقراطية الرخوة...فالبقرة المجنونة التي تتسم بالعصبية والعنف أظهرت خللا عصبيا ، وبذلك فإنها تفقد السيطرة على حركاتها شيئا فشيئا. ألا يعاني نظامنا

(١) -مذكور من قبل Le Nouvel Observateur, Olivier Péretier، ١٣-١٩ أكتوبر ١٩٩٤.
(2) Le Monde, 16 Novembre 2000.

الديموقراطي المشبع إلى حد كبير بالنزوات والتخوفات من الرأي، خللا مزعجا في السلوك؟»[١].

ويمكن أحيانا أن يتعالى التماثل على الحدود. ففي أحد اللقاءات الحوارية لم يتردد نيكولا ساركوزي بجرأة في استعمال تماثل فيها وراء الانقسامات السياسية، مؤكدا أن اليمين يرى ضرورة اتخاذ الاحتياطات «بألا يُرتكب في حق رجال التعليم الخطأ نفسه الذي ارتكبه أسلافنا في موضوع الأمن. لقد ارتكبوا خطأ عندما أنكروا حقيقة انعدام الأمن الذي استشعره مواطنونا. إننا لا نقلل من حقيقة ما أصاب الأساتذة من أضرار، ومن الخوف الذي انتابهم من المستقبل الذي يهدد مهنتهم، وعدم الرضا عن الممارسة اليومية لمهنة أصبحت صعبة جدا».[٢]

ويمكن أن يستند التماثل إلى الفكاهة في حد ذاتها- وخاصة في بعض الأحيان- عندما يكون الموضوع خطيرا. هكذا صرحت بريجيت موطوساي Brigitte Moutoussay وهي ممثلة أجيرة لنقابة التجارة بباريس، بخصوص إقفال متاجر مارك وسبنسر Marks et Spencer بفرنسا أنه «بتقديم الخطة هذا الصباح، قالت لنا الإدارة إننا كنا جميعا في المركب نفسه، فَذَكَّرْتُهُمْ بكل بساطة، أنه عندما غرقت سفينة التيتانيك le Titanic لم ينج سوى ركاب الدرجة الأولى».[٣]

يستدعي التماثل، في غالب الأحيان، رصيدا ثقافيا مشتركا، مثل الحالة التي اقترح فيها صحافي تماثلا، استلهمه من التاريخ، بين الجيز[٤] les Guise والمتعاونين مثل روني

---

(1) Libération, 10 Novembre 2000.

(٢) أقوال مقتطفة بواسطة Pascal Seaux ، و Hervi Gattegno، و Piotr Smolar Le Monde ، ٤ يوليو ٢٠٠٣.

(3) Le Monde , 31 Mars 2001.

(٤) – عائلة مشهورة من النبلاء في فرنسا، تركت بصماتها في الحرب الدينية، وكان لها نفوذ كبير، وبصفة خاصة في عهد الملك هنري الثاني (1547م). (المترجم)

بوسكي الذي: «كان يلبس ياقات من الفرو في ظل الاحتلال مثل ما كان الجيز يلبسون ياقة الفراولة [١]une fraise في زمن إبادة البروتيستانت»[٢].

يجب تطويع صيغة التماثل بحذر، في إطار بيداغوجي مثلا، والتأكد من أن الجمهور الذي نتوجه إليه يلم قليلا بهذه المرحلة من التاريخ وبخصائصها في اللباس (ولا سيما ياقة الفراولة la fraise»).

لا يستعمل التماثل في النهاية على نحو متواتر جدا، لأنه يرغم المتلقي على بذل جهد ذهني مما يجعله غير ملائم لكثير من المواقف الحجاجية. ومع ذلك فإنه يصبح ضروريا عندما يكون الموضوع المدافع عنه علاقة، أو بنية، أو حركة، أو دينامية. في كل هذه الحالات، لا توجد غالبا وسيلة آخر سوى أن يقارن بعلاقة مماثلة تحظى باتفاق مسبق.

ويمكن أن يستعمل التماثل كذلك بالضد a contrario . هكذا كان مؤلف كتاب «La rhétorique à Herrenius» يريد إقناعنا، بواسطة تماثل معكوس بشكل من الأشكال، أن الجنرالات الجدد هم غالبا من دون تجربة: «بخلاف ما يجري في حلبة السباق حيث يكون المتسابق الذي يتسلم أثناء سباق التناوب المشعل أسرع من المتسابق الذي يسلمه إياه، فإن الجنرال الجديد الذي يكلف بمهمة قيادة الجيش ليس أفضل من ذلك الذي يتركها. ذلك أنه إذا كان المتسابق المنهك يسلم المشعل إلى المتسابق الطَّرِيِّ، فإن الجنرال المُحَنَّك هو الذي يسلم مهمة قيادة الجيش لجنرال من دون تجربة.»[٣]

يمكن كذلك، في حدود حجة التأطير، أن يستدعي التماثل بنية هندسية أو بنية شكلية، بوصفها طرفا خارجيا (الحامل). فلتأكيد مسئولية كل واحد من الممثلين الرئيسيين الثلاثة في «قضية (ELF)، تقدم النيابة العامة الثلاثي («Le Floch-

(١) - ياقة كبيرة كانت تلبس حول العنق في القرن السادس عشر الميلادي.(المترجم)
(2) Laurent Greilsamer 10 Novembre 1994.، Le Monde. -

(٣) الكتاب الرابع، ٥٩.

Prigent-Tarallo-Sirven») بوصفهم لا يعملون «في صيغة هرمية ولكن مثل ثلاث دوائر لها فضاء مشترك وفضاء مستقل».[1]

الحجة بالمثال

يتميز المثال عن التشبيه comparaison الذي يندرج في حجة التأطير. كما رأينا ذلك بخصوص أصحاب المليارات الأمريكيين، نستدل من حالة خاصة تحولت إلى حالة «تمثيلية»، إمكانية تطبيقها على كل شيء آخر. كل شيء آخر في الظاهر لأن الهدف كما رأينا ذلك، هو العمل على استخراج مشابهة خفية. لكن تطبيق ذلك ليس دائما بسيطا: فَأَنْ نُقْنِعَ شخصا لا مأوى له، مشردا في شوارع نيويورك، باحثا عن الرزق، أنه في هذا البلد «يمكن أن يصبح كل الناس من أصحاب المليارات»، يبدو أقرب إلى السخرية الفظة منه إلى إجراء حجاجي.

لقد جلب هذا المثال من جهة أخرى حجة فصل مريعة عندما انشغل أحدهم بالتفرقة بين البيض والسود في الولايات المتحدة، والقول إنه إذا كان السود الأمريكيون يكوِّنون «بلدا»، فهذا البلد سيكون بعيدا جدا في السُّلَّم العالمي، مثلا من وجهة نظر الدخل الفردي، والبطالة، والأوضاع الصحية، إلخ...في أي بلد نُقيم؟ في أي بلد «يمكن أن يصبح كل الناس من أصحاب المليارات»؟

مهما يكن، فإن استعمال المثال لأجل الإقناع هو شيء متواتر، إلى درجة أننا نلاحظ فيها غالبا هذه المتتالية الغريبة في موقف حجاجي، حيث يضيف شخص ما، مقتنعا بفرضية يريد إقناع المتلقي بها، قائلا: «فلنأخذ مثالا ...»، ثم يعمل على البحث فورا عن مثال لم يكن في حوزته حتى الآن. هذا الموقف يبين كثيرا كيف أن استعمال المثال يُدرك بوصفه فعالا، ويُدرك في غالب الأحيان، بوصفه أكثر انقيادا للعفوية منه للتَّدَبُّر.

يختلف المثال عن التماثل، على الرغم من أنهما يشتركان في التماسهما عنصرا غريبا عن

---

(١) جريدة لوموند، ٣ يوليو ٢٠٠٣.

الرأي المقترح ويقيهان علاقة معه. فالمثال له بساطته وفوريته التي لا يتوفر عليها التماثل، ولا يتطلب متابعة خارج السياق المباشر الذي يستند إليه. هكذا حين أُدخل جاك شيراك في الدعوى من قبل مجموعة من النواب الاشتراكيين، فإن باتريك ديفيجيان Patrick Devedjian الذي كان محاميا عن جاك شيراك، حاجج الحصانة على هذا النحو: «في كل الديموقراطيات، يستفيد أصحاب الحق التنفيذي من مساطر خاصة. وكان هذا حال الرئيس كلينتون Clinton في قضية ليوينسكي Lewinsky.[1] يُعَدُّ بيل كلينتون Bill Clinton مثالا (لا سلطة)، وليس هنا موضع «الاقتداء» بالمثال، فالأمر يتعلق بالربط بين تهمة جاك شيراك المحتملة وبين العلاقات خارج الزواج لرئيس الولايات المتحدة الأسبق. إن تجاوز نطاق المثال سيكون غير مُوَفَّق.

نميز أحيانا بعض تنويعات المثال، كالشاهد أو القدوة. فالشاهد في نظر روبول هو مثال يمكن أن يكون تخييليا، يكمن دوره في منحه «حضورا في الوعي». في هذا المعنى، يتعلق الأمر بمحسِّن بلاغي أكثر مما يتعلق بحجة حقيقية. وعلى العكس من هذا، فالقدوة تُعَدُّ مثالا قويا ما دامت تتقدَّم بوصفها معيارا يستوجب الاحتذاء. فالحامل المتمثل في ذلك الشاب العامل في مجال الإعلاميات الذي صار من أصحاب المليارات، هو مثال وليس قدوة. إنه مثال يصلح للإقناع بأن كل الناس يمكنهم أن يصيروا من أصحاب المليارات. ويمكنه أن يصبح بالمقابل قدوة بالنسبة إلى مَن نريده أن يصير من أصحاب المليارات. فـ «الموضوع» في هذه الحالة هو: «تستطيع أن تحقق مبتغاك إذا عملت مثل سطيف جوبس Steve Jobs». يجب أن نستخدم المثال بحذر، مثل الحالة التي ساقها أوليفي روبول عن الأب الذي خاطب ابنه الذي يعاني في إعداد واجباته المدرسية: «في مثل سنك، كان نابليون الأول في قسمه»، في مواجهة هذا المثال المشهور، أجاب الابن على الفور: « وفي مثل سنك، كان إمبراطورا».

(1)Le Monde 26 ,Mai.2001

الخاتـــــــمة

في خاتمة هذا العمل يتوجب علينا أن نعترف أننا لم نستوف هنا دراسة كل مظاهر الحجاج. لقد ركزنا على نقطتين أساسيتين، متكاملتين في العمق: الاتفاق المسبق الذي يضطلع بدور أساس في الحجاج، والذي يجعل منه حقا نشاطا تواصليا، والحجة التي حاولنا وصفها عبر مختلف الأشكال الملموسة التي تتخذها.

إننا لم نخض مثلا، في القضية المهمة المتعلقة بترتيب الخطاب، حيث الاستهلال، وما يتطلب من جلب انتباه المتلقي لإقناعه، ثم بعد ذلك عرض الموضوع والوقائع، والسياق، والرأي الذي لم يَتَحَوَّلْ بعد إلى حجة. وبعد ذلك يرد الحجاج بمعناه الدقيق المتمثل في استعمال كل التقنيات التي تم وصفها في هذا الكتاب. ثم في النهاية ترد الخاتمة التي تختلف عن خاتمة الإنشاء الأدبي؛ فهي تعمل كما يعلمنا الفن الخطابي في النهاية على تجميع الحجج، ويفضل أن يكون ذلك في صيغة تركيبية ترفع الجدل إلى مستوى الرهان. وإذا ما تأملنا هذا الترتيب المكوَّن من أربعة أجزاء، فإننا نلاحظ أنه ما زال متَّبَعا حتى اليوم من لدن كل الخطباء شفاهيا وكتابيا.

ولم نتمكن كذلك في هذا الكتاب أن نتحدَّثَ عن الذاكرة ودورها الأساس في الحجاج. فالمحاججة تعني في النهاية، السعي إلى التأثير الحاسم والأخلاقي في ذاكرة

المتلقي. وتكمن قوة الحجاج في أنه تواصل، لا يقوم على التفاعل، أي إنه قصير المدى، فهو يتكون من علاقة ضيقة وحميمة تنعقد بين الخطيب والمتلقي الذي يتوجه إليه.

ولم نتمكن كذلك من التحديد الجيد للتطويع، الذي أعدنا تسميته هنا بـ «التأثير القسري» توخيا للدقة. ولم نتناول القضية المهمة المتعلقة بالحديث في المواقف الصعبة. ولكن مع ذلك فقد تطرَّقنا إلى هذين الموضوعين في كتابين سابقين. كان أولهما يتناول تطويع الكلام(1)، والثاني الذي أعيد طبعه منذ مدة قريبة(2)، يتناول بشكل ملموس عشرين موقفا دقيقا (من الحديث أمام الجمهور إلى العنف الجسدي)، تنطوي على تقنيات حجاج يمكنها أن تكون مسعفة للقارئ الذي نجيز لأنفسنا إحالته إليها.

وفي لائحة المصادر والمراجع الآتية عدد من المؤلفات التي تتيح متابعة التفكير في الحجاج وفي توسيع هذه النظرة إليه فيما وراء حدود هذا الكتاب الصغير.

لقد كان الهاجس الذي تحكم في صياغة هذا الكتاب هو ضرورة أن نعيد إلى الكلام وإلى قلبه النابض المتمثل في الحجاج، الدور الأساس الذي يجب أن يضطلع به في العلاقات بين البشر.

(1) Brcton, 2000.

(2)Brcton.2006.

الدليل البيبليوغرافى

Repères bibliographiques :

Achard Guy .la communication à Rome ; payot, paris ,1994 .

AMOSSY Ruth (dir), image de soi dans le discours, la construction de l'ethos, Delachaux et Niestlé, Paris ;1999 .

André Christophe et LEGERON Patrick , la Peur des autres. Trac, timidité et phobie sociale ; Odile Jacob, Paris ,2000

Angenot Marc, la parole pamphlétaire ; Payot ; Paris ;1982.

ANONYME, Rhétorique à Herrenius, texte établi et traduit par Guy Achard ; les belles lettres, Paris ,1989 .

ANSCOMBRE Jean -Claude et Ducrot Oswald, l'argumentation dans la langue, Pierre Mardaga éditeur, Paris ,1998 .

ARISTOTE, Rhétorique, tomes1 ,2 et 3 texte établi et traduit par Médéric Dufour, les Belles Lettres, Paris ,1967 ; tomes 1 et 2 : 1967 , tome 3 :1973 .

BADINTER Robert, l'abolition, Fayard, Paris ,2000 .

Barthes Roland « l'ancienne rhétorique » , communication « recherche rhétorique « n° 16 ,Seuil ,Paris ,1970 .

BELLENGER Lionel, l'argumentation, principes et méthodes, ESF, Paris,1992

La persuasion, PUF, Paris ,1985 .

BENOIT Ch, Essai historique sur les premiers manuels d'invention oratoire jusqu'à Aristote, 1846, Vrin,Paris ,1983 .

Boudon Raymond, l'Art de se persuader des idées douteuses, fragiles ou fausses , points seuil , paris 1990 .

BRETON Philippe et GAUTHIER Gilles, histoire des théories de l'argumentation, la Découverte, Paris ,2000 .

BRETON Ph. et PROULX S, l'explosion de la communication, la naissance d'une nouvelle idéologie , la Découverte et Editions du Boréal , « Science et société » Paris /Montréal ,1989 : nouvelle édition sous le titre L'explosion de la communication .introduction aux théories et aux pratiques de la communication , la Découverte, « Manuels Repères », Paris 2006 .

BRETON Philippe, éloge de la parole, La découverte, paris ,2003 .

La Parole manipulée, La découverte, paris ,2000 .

BRETON Philippe, argumenter en situation difficile, Pocket, Paris, 2006 .

CHARBONNEL Nanine, La tâche aveugle .les aventûres de la métaphore, Presses universitaire de Strasbourg, Strasbourg ,1991 .

CICERON, De l'orateur, livre premier et livre second, texte établi et traduit par Edmond Courbaud, Les Belles Lettres, Paris ,1922.

COMPAGNON Antoine, La Troisième République des letters, Seuil, Paris, 1983.

DECLERC Gilles, L'Art d'argumenter. Structures rhétoriques et littéraires, Editions universitaires, Paris, 1992.

Détienne Marcel (dir) , qui veut prendre la parole ? Le genre humain / seuil, Paris, 2003.

DUCROT Oswald, Les Echelles argumentatives, Editions de minuit, Paris ,1980 .

Escarpit R, Théorie générale de l'information et de la communication, Hachette université, Paris ,1976.

FUMAROLI Marc, L'âge de l'éloquence, Albin Michel, Paris ,1994 .

GAUTHIER Gilles, « La mise en cause de l'objectivité journalistique », communications, vol . 12, n° 2, 1991.

GUSDORF Georges, La parole, PJF, Paris,1952.

HARTOG François, « Liberté des Anciens, libertés des Modernes. La révolution française et l'Antiquité », in les Grecs, les Romains et nous, l'Antiquité est-elle moderne ?, textes réunis et présentés par Roger –Pol Droit, Le Monde –éditions ,1991 .

Joule R-V.et BEAUVOIS J-L, Petit Traité de manipulation à l'usage des gens honnêtes, PUG Grenoble ,1987 nouvelle édition 2002.

MEYER Michel, Questions de rhétorique, Le Livre de poche, « essais », Paris ,1993.

-Histoire de la rhétorique, des Grecs à nos jours, Librairie générale française, Paris, 1999.

MIEGE Bernard, La Pensée communicationnelle, PUG, Grenoble, 1995.

MOLINIE Georges, Dictionnaire de rhétorique, livre de poche, Paris, 1992 .

Oléron Pierre, l'argumentation, PUF," que sais-je ? » n° 2087, Paris ,1993 .

PACKARD Vance, la persuasion clandestine, calmann-lévy, Paris, 1963.

PERELMAN Chaïm, l'Empire rhétorique, vrin, Paris,1998 .

PRELMAN Chaïm et OLBRECHTS-TYTECA , Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique , Editions de l'université de Bruxelles , Bruxelles, 1970 .

PLANTIN Christian, Essais sur l'argumentation, Kimé, Paris ,1990 .

L'argumentation, seuil, « Mémo », Paris ,1996 .

REBOUL Olivier, Introduction à la rhétorique, PUF , « premier cycle » ,paris ,1991 .

La Rhétorique, PUF « que sais –je ? » ,Paris ,1984 .

REMILLEUX Jean –Louis, Le salaud lumineux , Le livre de poche, Paris, 1992.

RESWEBER Jean Paul , La philosophie des valeurs , PUF « Que sais –je ? n° 2650 , Paris ,1992 .

ROBRIEUX Jean –jacques, Eléments de rhétorique et d'argumentation ,Dunod ,Paris ,1993 .

SECRETAN Philibert, L'Analogie, PUF ,Paris ,1984 .

SLAMA Alain –Gérand, La Régression démocratique, Fayard, Paris, 1995 .

STEINER Georges, Réelles présences, les arts du sens, Gallimard, Paris , 1991 .

TACITE, Dialogue des orateurs, Les Belles Lettres, Paris, 1985 .

TERRAY Emmanuel ; « Egalité des Anciens, égalité des modernes », Les Grecs, Les Romains et nous, L'Antiquité est-elle moderne ? Textes réunis et présentés par Roger-Pol Droit, le Monde Editions, Paris ,1991 .

TODOROV Tzvetan, Les Abus de la mémoire, Arléa, Paris ,1995. .

Voirol Michel, Guide de la rédaction, éditions du centre de formation et de perfectionnement des journalistes, Paris ,1990 .

WATZLAWICK Paul, La réalité de la réalité .confusion, désinformation, communication, Seuil , Paris , 1978 .

Le langage du changement, éléments de communication thérapeuthique, Seuil ,

Paris, 1980.

WATZLAWICK Paul, WEAKLAND John et FISCH Richard, Changements, paradoxes et psychothérapie, Seuil ,Paris ,1975 .

WINDISCH Uli, « L'argumentation politique : un phénomène social total .Pour une sociologie radicalement quotidienne », Année sociologique ,juin 1995.

معجم المصطلحات المستعملة في الحجاج

-الاتفاق المسبق: إن بعض العناصر التي يقبلها المتلقي مسبقا في مجال التواصل الحجاجي*[1] تمثل نقطة انطلاق لبناء الحجج من قبل الخطيب؛ فالحجاج يتمثل هنا في نقل الاتفاق المسبق نحو الرأي الذي نريد الدفاع عنه وجعله على هذا النحو مقبولا- في حجة التماثل* مثلا، يجب أن يكون الطرف الخارجي («الحامل») الذي ننقله إلى الرأي*، موضع اتفاق مسبق: فتدعيم القول، كما فعل أرسطو، بأنه لا ينبغي أبدا اختيار قضاة المحاكم عن طريق القرعة، وبأننا لا نفعل ذلك مع الفرق الرياضية، يتضمن اتفاقا مسبقا حول الطرف الثاني.

-حجة التماثل: هي إحدى أصناف الحجج الأربعة الكبرى. وتتمثل في وصل، وتشبيه، أو إقامة علاقة بين عنصر خارجي (الـ «الحامل») المتفق عليه مسبقا، وبين الرأي المقترح وجعله هكذا مقبولا-نتحدَّث مثلا عن السيدا في أفريقيا بوصفها «نخاسة ثانية» محيلين على هذا النحو إلى العواقب الكارثية للرق، وذلك لأجل الدفاع عن الرأي الذي يقر بالنتائج الوخيمة لهذا المرض؛ فالمثال، والتشبيه، والتماثل، والاستعارة، تنتمي إلى صنف حجج التماثل.

-الحجة: لفظ يشير إما إلى الشكل الذي سيوضع داخله الرأي* في «قالب»، وإما يشير إلى المجموع المتكون من الشكل والرأي*. في الحالة الأولى يستخدم اللفظ للإشارة إلى مختلف أصناف الأشكال المستعملة في الحجاج* مثل: حجة السلطة*. وفي الحالة الثانية يستخدم اللفظ للإشارة إلى ملفوظ تام. نقول مثلا إن خطيبا استعمل «حجة جيدة» في الجدال. إننا نميز، من وجهة نظر تصنيفية بين أربعة أنواع من الحجج: حجج السلطة*، وحجج التأطير*، وحجج التماثل*، والحجج التي تستند إلى الافتراضات المشتركة*.

---

(١) تشير الألفاظ والعبارات المتبوعة بعلامة النجمة إلى التعريفات المقدمة في هذا المعجم.

-المتلقي: يطلق هذا الاسم، في مقام تواصلي حجاجي، على متلقي الرسالة، أي الأشخاص الذين نريد إقناعهم.

-حجة السلطة: هي أحد أصناف الحجج الأربع الكبرى. وتقوم على بيان أن الرأي* الذي نريد الدفاع عنه، سبق الدفاع عنه، أو أنه يتطابق مع أفكار سلطة معترف بها من قِبَلِ المتلقي. هكذا، نستند إلى حجة التجربة، والشهادة، والكفاية. و يقوم الشكل المقلوب لحجة السلطة على وصل سلطة سلبية لنقد رأي ما: «كان هتلر يقول ذلك أيضا».

-الفعل: هو المرحلة الخامسة والأخيرة في إنجاز الخطاب الحجاجي. يقوم الفعل على توقع الموقف الملموس للحجاج لأجل التهيؤ له والتدخل المحتمل في العناصر المادية (تموضع الأشخاص، قضية نقل الصوت، إلخ...).

-حجة التأطير: هي أحد أصناف الحجج الأربع الكبرى. يقوم التأطير على جهة القول في تقديم الرأي* بحيث يكون قابلا لملاقاة أو إثارة اتفاق مع المتلقي*: فالتأكيد مثلا على مظاهر لصالح الرأي*، والتهوين من المظاهر الأخرى التي يمكنها أن تتوفر على تأثير نقيض، هو ما يؤسس التأطير. فالوصف* الموجه، والتعريف الحجاجي، والنعت، والفصل، تشكل حجج التأطير. قال طوم سوير Tom Sayer لأصدقائه الذين سخروا منه عند معاقبته بطلي السياج: «إن الأمر لا يتعلق بـ «عمل»، ولكن بنشاط ممتع وذي قيمة، لا تتاح لنا الفرصة دائما للقيام به.“

-التواصل: هو نقل رسالة من مرسل إلى متلق عبر قناة. ينصرف التواصل وفق ثلاثة سجلات متكاملة: نتحدث عن التواصل التعبيري*، والحجاجي*، والإخباري*. ويحيل تحليل التواصل دائما إلى تحليل لـ «مقام تواصلي» كلي.

-التواصل الحجاجي: إنه أحد سجلات التواصل* الثلاثة. تتمثل غايته في إقناع المتلقي* بمشاطرة رأي خطيب* ما. وهو يستند إلى التقنيات التي تحوِّل رأيا إلى حجة، ناقلة إياه إلى المتلقي؛ فالإلحاح مثلا على «الطفولة الشقية» لمتهم ما، يمكنه أن يساعد،

إذا اقتضى الأمر ذلك، على التخفيف من مسئوليته في نظر القضاة. إن رجال السياسة، والمحامين، ومحترفي التواصل، والبائعين، يستعملون هذه التقنيات بكثافة.

-التواصل التعبيري: إنه أحد سجلات التواصل* الثلاثة. وهو يتيح التعبير عما نحس به، أو نراه بطريقة فريدة. ويستند إلى تقنيات الحكي، وإلى عدد معين من الصور لبلوغ الواقع المُعَبَّرِ عنه، كما في الاستعارة* على سبيل المثال. فلأجل التعبير مثلا عن انحدار الشيخوخة، يمكن استعمال الاستعارة الآتية: "مساء الحياة". فالشعراء، والكتاب، والمؤلفون، والفنانون، وكل واحد منا يستعمل وسائل التعبير وحيله.

-التواصل الإعلامي: إنه أحد سجلات التواصل الثلاثة. هدفه وصف ما شهدنا عليه من واقعة، أو حدث، أو رأي بكل موضوعية ممكنة. فالقول مثلا: «توجد في الساحة ثلاث أشجار ذات الأوراق الخضراء»، يفترض أن شاهدا آخر، الملاحظ لنفس المشهد، يقول الشيء نفسه. يستند التواصل الإعلامي بشكل أساس إلى الوصف*. إنه يشكل قاعدة العمل الصحافي.

-التأكيد (الإثبات): هو جزء من ترتيب الخطاب الحجاجي يعقب الاستهلال* وعرض الوقائع*. إنه «يثبت» الرأي المقترح، ويقوم إذن على ملفوظ الحجج* المختلفة، وفقا لترتيب معين، ومقام تواصلي معلوم.

-الوصف: نموذج مختصر هرمي وممثل لجزء من الواقع الذي نريد وصفه- يفترض الوصف عموما قائمة من العناصر المكونة للواقع- مثال ذلك: «وصلت الطائرة في الواحدة زوالا وخمس عشرة دقيقة، قادمة من الغرب. ونزلت بسرعة منخفضة. وبمجرد توقف الطائرة بشكل نهائي، شرع الركّاب يخرجون عبر السلم الملصق خلف الطائرة. كان عددهم اثنين وخمسين راكبا، وكانت الشمس تشع على الطريق المسلفت. إلخ...»-يشكل الوصف الصورة الجوهرية في التواصل الإعلامي*. ولكن توجد كذلك أوصاف موجهة ضمن حجج التأطير وأوصاف «أدبية» داخل حقل التواصل التعبيري*.

-الترتيب: وهو المرحلة الثانية في بناء الخطاب الحجاجي. وهو اللحظة التي نختار فيها أفضل خطة حجاجية*، وترتيب الحجج*.

-الأسلوب: وهو المرحلة الثالثة في بناء الخطاب الحجاجي. ونعني به اللحظة التي نختار فيها الألفاظ والصور التي سنستعملها. ويتعلق الأسلوب بالصياغة اللغوية للخطاب.

-**الاستهلال**: هو جزء من الخطة الحجاجية: يشير إلى الجزء الأول من الخطاب. وهدفه جلب انتباه المتلقي* وجعله رفيقا، واستعطافه حتى قبل البدء في عرض الوقائع ومناقشتها.

ويمكن أيضا أن يصلح الاستهلال للإعلان عن الخطة المتبعة في الخطاب. مثال ذلك: «أصدقائي ! النجدة !». هي الكلمات الأولى التي توجه بها الراهب بيير Pierre إلى جمهور راديو لوكسمبورغ، في فاتح فبراير من سنة ١٩٥٤، قبل أن يحضّ على إعانة مشردي مدينة باريس بتأسيس جمعية «رفاق إيماوس». كما أن الجنرال دوجول جلب انتباه مستمعي قناة ب.ب.س. في السادس من شهر يونيو من سنة ١٩٤٤، مستهلا خطابه بالكلمات الآتية: «المعركة الكبرى بدأت.»

-**عرض الوقائع**: يسعى هذا الجزء من الخطة الحجاجية لعرض السياق والإعلان أحيانا عن المحتوى أو خطة الإثبات. ويكون في الغالب عرض الوقائع الوصفي*، موجها مسبقا قصد الحجاج.

-الإيجاد: (إيجاد الحجج): وهي المرحلة الأولى في بناء الخطاب الحجاجي، حيث نختار فيها «زاوية الهجوم»، وفقا لتكوين المتلقي* وطبيعته، ووفقا للاتفاقات المسبقة* التي سنعتمد عليها، حيث نبحث عن أفضل الحجج* التي نصوغ فيها الرأي*، وحيث نتدَبَّرُ أيضا الطريقة التي نقدم بها أنفسنا، والأسلوب الذي سنتبناه.

-التطويع: هو تقنية لإقناع المتلقي* من دون حجاج- يحرم التطويع المتلقي من حريته في الاختيار- إننا نميز بين التطويع الإدراكـي، الذي هو تضليل حجاجي وتطويع المؤثرات الذي يعد تكييفا نفسيا للعلاقة بين الخطيب* والمتلقي- إن الوصل بين «الأجانب، والبطالة، ومرض السيدا» في مجموع واحد يشكل مزجا تطويعيا يسعى إلى إيجاد علاقة سببية من دون تقديم أي حجة* يمكن الاستناد إليها.

التذكر: هو المرحلة الرابعة في إنجاز الخطاب الحجاجي- إنه يشكل الدعامة الأكثر ملاءمة لحفظ مختلف العناصر المكونة لهذا الخطاب- يستند الحجاج الشفوي إلى استبطان مخصوص لهذه العناصر على نحو ما يقتضيه الترتيب*، وهو ما يمكن أن يحيل إلى طرائق «الذاكرة الاصطناعية». ويمكن أن يستند الحجاج الشفوي كذلك إلى نظام من العلامات الملائمة.

-الرأي: هو وجهة نظر، أو أطروحة، أو قضية أو تمثل يدافع عنه الخطيب- تنتمي الآراء، في حقل الحجاج، إما إلى المجال القضائي، وإما إلى المجال السياسي (بالمفهوم الواسع)، وإما إلى «الجدل الاجتماعي»، وإما إلى كل تمثل أو منتوج نسعى إلى ترويجه- ولتبليغ الرأي إلى المتلقي*، فإنه يصاغ في حجج*.

-الخطيب: هو اسم يطلق على مرسل الرسالة في مقام تواصلي حجاجي*.

-الخاتمة: وهي الجزء الأخير من الخطة الحجاجية*. تستعمل من قبل الخطيب* لإنتاج انطباع حاسم قصد حمل المتلقي* على الاقتناع. تنعش الخاتمة ذاكرة المتلقي، وتلخص دواعي الإذعان للرأي في صور لافتة. كما تستدعي الخاتمة العواطف والأهواء للهدف نفسه. ويعد التفخيم، في هذه الخاتمة، إحدى الصور الأساس. فقد ختم الجنرال دوجول خطابه في ال: ب.ب.س. يوم ٦ يونيو من سنة ١٩٤٤ بالعبارة الآتية: «خلف السحابة الكثيفة الكبيرة لدمائنا ودموعنا، ها هي شمس مجدنا تظهر من جديد».

-الخطة الحجاجية: كانت البلاغة القديمة تميز بين أربعة أجزاء في الخطاب الحجاجي: الاستهلال*، والسرد أو عرض الوقائع*، والإثبات* أو ملفوظ الحجج*،

والخاتمة*. وما زالت أغلبية الخطابات الحجاجية حتى وقتنا الحاضر -أيضا- تسير على هذا المنوال.

-الافتراضات المشتركة: (الحجج التي تستند إلى الافتراضات المشتركة). هي أحد أصناف الحجج الأربع التي تقوم على تبيين أن رأيا مقترحا يتوافق مع قيمة ما، أو مع عقيدة أو موضعا مشتركا مقبولا من المتلقي- فإذا كان المتلقي يؤمن بالمساواة، فإننا يمكن أن نسند بها الرأي الذي ينص على أنه في العمل الواحد «يجب أن تكون الأجور متساوية بين الرجال والنساء». كما يمكن الاستناد إلى الموضع المشترك الآتي: «من يسرق بيضة، يسرق عجلا» لتأكيد الجسامة الكامنة في الفعل الذي قام به لص ما.

-البلاغة: يطلق هذا الاسم، وخصوصا في العصر القديم، على «فن الإقناع». فـ «أساتذة» البلاغة الأوائل هم: كوراكس، وجورجياس، وإيزوقراط، ثم أرسطو، وشيشيرون وكونتيليان.

ثبت لأهم المفهومات وأسماء الأعلام الرئيسة المذكورة

اللفظ العربي	اللفظ الفرنسي
الاتفاق المسبق	accord préalable
المزج	(amalgame (s
التفخيم	Amplification
التماثل	Analogie
الحجة	Argument
الحجة المستمدة من الشخص	Argument ad hominem
-حجة التماثل	argument d'analogie-
-حجة السلطة	argument d'autorité-
-حجة التأطير	argument de cadrage-
-حجة الاشتراك	argument de communauté-
-حجة التعريف	argument de définition-
-حجة السيادة	argument de toute-puissance-
-حجة التسمية	argument de nomination-
-حجة النعت	argument de qualification-
-حجة الفصل	argument par dissociation-
-حجة المثال	argument par l'exemple-
-الحجة شبه المنطقية	argument quasi- logique-
الحجاج	Argumentation
حجاج المواطنة	argumentation citoyenne
المحاججة	Argumenter
أرسطو	Aristote
فن الإقناع	Art de convaincre
الوصل	association
المتلقي	auditoire
المتلقي الكوني	Auditoire universel

Autorité négative	حجة السلطة السلبية
Badinter , Robert	بادانطير، روبير
Barthes , Roland	بارت، رولان
Beauvois	بوفوا
Chiasme	قلب العبارة
Communication	التواصل
Communication politique	التواصل السياسي
Comparaison	التشبيه
Contexte de réception	سياق التلقي
Convaincre	فعل الإقناع
Croyance	الاعتقاد
DEBRAY ,Régis	دوبري، ريجيس
Démonstration	البرهنة
DECARTES	ديكارت
Description	الوصف
Dissociation des notions	فصل المفاهيم
DUCROT , Oswald	ديكرو أوسوالد
Egalité	المساواة
Ethique	الأخلاق
Evidence	الوضوح
Exorde	الاستهلال
Exploitation	الاستعمال
Expolition	التكرار
Exprimer	فعل التعبير
figures de style	صور الأسلوب
GAUTIER, Gilles	جوطيي، جيل
GUSDORF, Georges	جوسدورف، جورج

Illustration	التوضيح
Information	الإعلام
Informer	فعل الإعلام
Joule	جول
lien social	الرابط الاجتماعي
lieu commun	الموضع المشترك
lieu de la qualité	موضع الكيف
Lieu de la quantité	موضع الكم
Lieu de la symétrie	موضع التناظر
Lieux	المواضع
Manipulation	التطويع
Manipulation cognitive	التطويع المعرفي
Manipulation psychologique ou mentale	التطويع النفسي
Métaphore	الاستعارة
Modèle	القدوة
Napster	نابستر
Objectivité	الموضوعية
Oléron ,Pierre	أوليرون، بيير
Opinion	الرأي
Orateur	الخطيب
PACKARD , Vance	باكار، فانس
Parole	الكلام
PERELMAN , Chaim	بيرلمان، شاييم
Péroraison	الخاتمة
Pétition d'incompétence	قياس عدم الكفاءة
Phore	الحامل

Présentation	العرض
Propagande	الدعاية
Publicité	الإشهار
Raisonnement	الاستدلال
REBOUL , Olivier	روبول، أوليفيي
Rhétorique	البلاغة
Sciences de la communication	علوم التواصل
Séduction	الإغراء
Sémtiotique	السيميائيات
SHANNON	شانون
Situation de communication	موقف التواصل
Stratégie argumentative	الاستراتيجية الحجاجية
Talmud	التلمود
Thème	الموضوع
Ton noble	النبرة النبيلة
Torah	التوراة
(Valeur(s	القيم
Valeurs abstraites	القيم المجردة
Valeurs concrètes	القيم الملموسة
Violence	العنف
Vraisemblable	المحتمل
WINDISH , Uli	وانديش

المؤلف فى سطور:

فيليب بروطون **Philippe Breton**

باحث في CNRS متخصص في علوم الإعلام والتواصل. من أعماله المنشورة:

-انفجار التواصل، ميلاد إيديولوجية جديدة، بالاشتراك مع سيرج برولكس، باريس،١٩٨٩.

-يوتوبيا التواصل، منشورات الاكتشاف، باريس،١٩٩٢.

-تاريخ نظريات الحجاج، بالاشتراك مع جيل جوطيي، باريس، منشورات الاكتشاف، باريس، ٢٠٠٠.

-الصمت والكلام ضد مبالغات التواصل، بالاشتراك مع دافيد بروطون، تولوز، منشورات إيريس، ٢٠٠٠.

-مديح الكلام، منشورات الاكتشاف، باريس، ٢٠٠٣.

-الرافضون، أو كيف نرفض أن نصير فاعلين، منشورات الاكتشاف، باريس، ٢٠٠٩.

المترجمان فى سطور:

١ ـ د.محمد مشبال

أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب بكلية الآداب جامعة عبد المالك السعدي بتطوان المغرب.

أصدر حتى الآن مجموعة من الكتب والترجمات:

-مقولات بلاغية في تحليل الشعر١٩٩٣.

-الصورة في الرواية، منشورات مدرسة الملك فهد العليا للترجمة، ١٩٩٥، (ترجمة بالاشتراك).

-بلاغة النادرة ١٩٩٧ و٢٠٠١ و٢٠٠٦.

-أسرار النقد الأدبي ٢٠٠٢.

-الهوى المصري في المخيلة المغربية-دراسات في السرد المغربي الحديث ٢٠٠٧.

-البلاغة والأصول: دراسة في أسس التفكير البلاغي عند العرب-نموذج ابن جني، أفريقيا الشرق ٢٠٠٧.

-صورة الآخر في الخيال الأدبي، ترجمة، منشورات مشروع «البحث النقدي ونظرية الترجمة» كلية الآداب فاس، ٢٠٠٩.

-البلاغة والسرد، جدل الحجاج والتخييل في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب تطوان ٢٠١٠.

-البلاغة والأدب، من صور اللغة إلى صور الخطاب، دار العين، القاهرة ٢٠١٠.

-النقد والإبداع والواقع نموذج سيد البحراوي، كتاب جماعي، تقديم وإعداد محمد مشبال، دار العين القاهرة، ٢٠١٠.

٢ ـ د.عبد الواحد التهامي العلمي

باحث ومترجم من المغرب.

حاصل على دبلوم المركز التربوي الجهوي١٩٧٨(تخصص اللغة الفرنسية).

حاصل على دبلوم الدراسات المعمقة في اللغة الفرنسية من فرنسا(١٩٨٩).

حاصل على شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها في موضوع: «نثر الجاحظ الأدبي وأنماط التلقي عند النقاد العرب»، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان/ المغرب(٢٠١١).

نشر عدة دراسات عن السرد العربي القديم ومقالات مترجمة عن الحجاج والنقد الأدبي في مجلات وصحف مغربية وعربية.

التصحيح اللغوى: محمود حنفى
الإشراف الفنى: حســن كـامــل

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب